بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد الكريم تتان

عفريت من الجن

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

2011=1432
دار الفكر - دمشق — برامكة
٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

عفريت من الجن

الشيخ عبد الكريم تتان

الرقم الاصطلاحي: ٢٣١٨,٠٣٦
الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-287-6
الرقم الموضوعي: ٢١٠ (دراسات إسلامية)
١٠٨ص، ١٢ × ٢٠ سم
الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

عفريت من الجن

الحمدُ لله والصلاةُ والسلامُ على رسول الله ﷺ وبعد:

أخي الفاضل! تحية طيبة وأسأل الله معها أن يحفظك ظاهراً وباطناً.

قد قلتم: إن بعض المفسرين قال: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠] في قصة سليمان عليه السلام هو سليمان نفسه، أجاب به (العفريت) بمقتضى ما يسر الله له من السنن الكونية، وما أعطاه من الملك، وأن هذه المعجزة منشؤها منه، وإنما لم يأت به سليمان أولاً، بل استفهم القوم بقوله: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِى بِعَرۡشِهَا﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٨]، ثم قال ما قال ليريهم أنه يتهيأ له ما لا يتهيأ لعفاريت الجن، وإنما خص الخطاب بالعفريت لأنه هو الذي تصدى فادعى القدرة على الإتيان به من بين الملأ، وسألتم: هل يصح هذا التأويل؟ وإلا فما التفسير الصحيح المعتمد؟ وأقول:

كي نصل إلى القطع بالتفسير الصحيح أو الراجح، لابد من مجموعة من الأبعاد المتصلة بالآية؛ سواء سبقتها بالنص، أو دلت عليها الآية موضوع السؤال، فمعرفة جانب من شخصية كل من سليمان عليه السلام وبلقيس الشخصية الرئيسة في الموضوع، وآصف على ما ذكره كثير من المفسرين أمر ضروري لتجلية المعنى، وكذلك ما يتصل بالمعجزة والكرامة، والفرق بينهما، وأدلة ذلك، وما يتصل باسم الله الأعظم الذي فسر به قوله تعالى: ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وما يتعلق بقانون الفاعل، والعلاقة بين القدرة والزمن، وما جاءت به الصياغة القرآنية للواقعة من دلالات، وما تشير إليه مما له صلة بمن أتى بالعرش، وإن كان الفاعل الحقيقي للحدث هو الله تعالى، هذا كله لتكتمل أمامنا أبعاض المشهد في لوحة زاخرة بالعطاء، ولنقف على ما يبدو راجحاً من توجيهين ذهب العلماء إليهما عند إسناد فعل "قال" إلى فاعله، أو إلى تخطئة وجه على حساب تصويب آخر، وإن كان كل فريق دعم ما ذهب إليه بضروب من الاستدلال مقتبسة من الصياغة القرآنية، ومن إدارة الحوار بين الملأ - ويمثلهم عفريت من الجن - وسليمان عليه

السلام، ومن منزلة سليمان أيضاً من حيث كونه رسولاً، ومما فاه به لما رأى العرش بين يديه.

وسنعرف في السياق ما جاءت به التفاسير، وما رجح فيها وما استبعد، وما جمع فيها بين الوجهين، وهذه لم تخرج فيما ذكرته عن أمرين:

الأول: أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان أو غيره من الإنس أو الجن أو من الملائكة.

الثاني: إذا كان غير سليمان، فمن هذا الذي قام باستحضار العرش في طرفة عين، بل قبل انتباهتها؟

على أننا لا نعدم بين التفاسير تفسيراً ذهب إلى إلغاء المشهد كله، وفسره بما يتناسب مع النظرة المادية الغالبة التي طغت على بعضهم فدعته إلى إنكار الخوارق؛ فلا معجزات ولا كرامات البتة، وإنما هي سنن كونية، من وقف عليها، واطلع على آليتها أمكنه توظيفها على ما يريد، وهؤلاء لا يُلتفت إلى ما قالوا لجهارة الأدلة على كل من المعجزات والكرامة، وتأويل الخارقة بعيداً عن النص لا يلغيها، وهذه مدرسة نشأت تريد أن تقرب الحقائق الإسلامية إلى غير المسلمين كما رأت، فدعاها ذلك إلى صرف النصوص الكثيرة عن وجهها صرفاً لا يسوغ بحال،

وما قالوه بشأن السنن الكونية وتسخيرها لبني آدم فما يختلف معهم فيه؛ إذ هذا الكون ممتلئ بالمدخرات التي من امتلك مفتاح خزانتها فتحت له، وامتطى الهواء محلقاً في الأجواء، ولكن ما حرصوا على تأويله على وجه يتفق مع منطلقهم لا يقدر على إلغاء الخوارق التي هي من صنع الله جل جلاله، كالسنن الكونية الجارية على نسق الاستمرار العادي.

وهذه خطوط التناول ألخصها بما يلي، بادئاً بملامح من شخصية كل من سليمان عليه السلام وبلقيس في كلمات قليلة؛ إذ هذه الملامح تساعد مساعدة ما على تبين الوجه المطلوب، كما سنعرض للجو العام للنص، وما دل عليه من خارقة إذا ظهرت على يد رسول كانت معجزة، وإذا ظهرت على يد ولي كانت كرامة، وهما: (المعجزة والكرامة) بمضمون واحد وفاعل واحد، ولكن ظهورهما خالف بين الاسمين، وكذلك اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به الله أجاب لعلاقة هذا بإسناد الخارقة إلى من عنده علمه، ونسوق ما جاء في التفاسير مختصراً مع ذكر المرجع ما استطعت، مع بيان كون الإتيان بالعرش خارقة لبُّها الفترة الزمانية التي تحقق فيها، ونخلص إلى الترجيح والاستبعاد في موضوع السؤال ودليل ما يتبنى...

والابتداء بملامح شخصية سليمان عليه السلام على سبيل التعريف الموجز المستخلص من النصوص، ونثني بما يتعلق بتلك الملكة صاحبة العرش المستحضر موضوع السؤال.

في قراءة لملامح شخصية سليمان عليه السلام كما جاءت بها النصوص، نجد مجموعة من الحقائق: منها ما كان من وصفه أنه كان أبيض جسيماً، وضاء جميلاً خاشعاً متواضعاً، وأنه كان وريث والده داوود عليه السلام في النبوة والعلم والحكمة، من بين اثني عشر ابناً، وقد آتاه الله ملكاً واسعاً لم يؤته أحداً من خلقه من بعده، يقال: حكم فلسطين وما حولها حتى غطى الشام إلى اصطخر، وكان ذلك في القرن العاشر قبل الميلاد، وفي النصف الأخير منه، كما ذكرت المصادر، وكان كثير الغزو والجهاد، لا يكاد يتركه، ومع هذا كان متواضعاً يجالس المساكين، ويقول: مسكين جالس مسكيناً! وكان عصره من أزهى العصور، حيث نعمت مملكته بسلامة ورخاء ونعمة، وكذا عصور الرسل حين تتولى مناهجهم الربانية صياغة الحياة وضبط حركتها. وهذا بخلاف ما ورد في التوراة المحرفة حيث عبثوا بسيرته عليه السلام، وشوهوا صورته، كما شوهت صورة أبيه داوود عليه السلام من قبل أيضاً، بل لم يسلم كثير من الأنبياء

من هذا التشويه والعبث بسيرهم**!!!** وقد كان أبوه داوود يشاوره في كثير من الأمور على صغر سنه لوفور عقله وعلمه؛ إذ أوتي الحكمة منذ نعومة أظفاره، وحداثة سنه، وكانت أمه ترعاه بالتغذية السلوكية المتقدمة، وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قالت أم سليمان بن داوود: يا بني**!** لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة[(١)]**!!**.

وقد تناولت كثير من الآيات القرآنية جوانب من حياة كلٍّ من سليمان وأبيه **عليهما السلام**، تبرز ما لهما من فضل، وما خصا به من عطاء؛ ومنها أنهما عُلما منطق الطير، وأعطيا قدرة على إدراك كلام مخلوقات كالنمل، وقصة النملة التي حذرت قومها أن يطحنهم سليمان وجنوده في طريقهم من الظهور بمكان، وسخر الله له الريح تنقله حيث يشاء، وتقطع به المسافات الشاسعة، وسخر له من الجن والمردة، من يغوصون بأمره في البحار، ويعملون له ما يأمرهم به، كما أسال له عين القطر وهو النحاس المذاب، فكان النحاس يتدفق منها، فيصنع به ما يشاء، وكانت ضمن جنده من الإنس والجن والطير، وكان على دراية

(١) الحديث رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه.

بأفراده دراية واعية، وما ذكر هو من مظاهر تمكين الله له في الملك، على أنه كان فقيهاً بشؤون دولته، قائماً بأمرها، ومباشراً لإدارتها أكمل مباشرة، فكان نموذجاً لولي الأمر المخلص، ولا يخفى أن من دقائق مباشرته تفقده الطير من بين أسراب كانت بين يديه، وأعداد تسير مسيرته لا تكاد تحصى، ومساءلته الهدهد بعد حضوره حيث غاب، ولم يستأذن، وهذا من مظاهر الضبط والربط في دولته التي تعدُّ امتداداً لملك داوود عليه السلام، وما ذكرناه نجده في آيات نضحت به على أروع أسلوب وأدقه، فكان تاريخاً لرسول من رسل الله سبحانه وتعالى.

ولعل من أبرز ما كان عليه، وهو مما له صلة واشجة بما نحن بصدده - اهتمامه بشؤون التوحيد في بلده، وما وراء الحدود، وقد دفعه ذلك إلى استقدام بلقيس ملكة سبأ إليه، لما بلغه عن طريق الهدهد ما كان عليه قومها من عبادة غير الله سبحانه وتعالى؛ إذ كانوا يعبدون الشمس من دون الله سبحانه وتعالى...

كذلك كان حاضر القلب؛ ولا عجب إذ هو من الرسل الكرام، مع نعم الله السابغة وفضله سبحانه عليه فيما أعطاه إياه من قوة وكثرة جند وسعة سلطان. يدل

على ذلك ما لهج به لسانه لما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده؛ إذ قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠] ولم يخرج بهذا الفضل عن دائرة شهوده الحكمة من هذا العطاء؛ وهي الابتلاء الذي يشمل كل ميادين الحياة منعاً ومنحاً، ليظهر من الإنسان، ما علمه الله أزلاً، في عالم الإمكان، شكر الشاكر، وصبر الصابر، وكفران الغافل الخاسر، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢-٣].

أما ملكة سبأ بلقيس، فإن القرآن الكريم لم يذكر اسمها، واكتفى بوظيفتها ووضعها الاجتماعي والسياسي، والمفسرون هم الذين ذكروه، وذكروا أنها من بنات التبابعة، وكان وجودها قرابة سنة (٩٥٠) ق.م، وقد دلت الآيات التي ساقت طرفاً هاماً من سيرتها على مجموعة من صفاتها، ومن الواضح أنها كانت في زمن سليمان عليه السلام وكانت ملكة سبأ في اليمن، وكان حكمها قائماً على الشورى، حيث استدعت أشراف مجلسها، ووجوه قومها، وكبار قادتها، تشاورهم في أمر رسالة سليمان عليه السلام إليها حيث دعاها فيها إلى التوحيد والإسلام، ودعوتها

الملأ للتشاور معلم بارز من معالم شخصيتها التي لم تكن مستبدة؛ فهي خبيرة بأن أي قرار يتخذ تجاه الرسالة التي حملها الهدهد المكتشف لأمرها، لابد فيه من بحث عميق دقيق حكيم يشارك فيه أهل الخبرة والشركاء في إدارة البلاد؛ لأنه قرار مصيري وخطير، ولذا لم تنفرد الملكة باتخاذ أي موقف لتفرضه بعد ذلك على الرعية.

ولما كانت المشاورة تقتضي حواراً مفتوحاً تطرح فيه وجهات نظر المشاركين في الشورى، وجدنا الملكة تستمع إلى ما ذهب إليه قادة جيشها حيث أعلنوا عن قوتهم الحامية الضاربة بقرارها، وأبدوا طاعتهم المطلقة لها فيما ترى، وأنهم رهن إشارة، مما يدل على منزلتها في نفوسهم، وهي أكدت أنها لا تقطع أمراً دونهم، ونلحظ الفرق بين القرار العسكري والسياسي، حيث لا يتعدى الجيش حدود الإعداد والتدريب وامتلاك البأس، وقد كشفت الملكة أمام الملأ عن سنة من سنن الملوك إذا دخلوا قرية مما يدل على خبرتها التاريخية، ومعرفتها بسلوك الملوك، ثم طرحت رأيها بالاختبار تجريه لسليمان عبر هدية ترسلها إليه لتقف على حقيقة أمره، وبناء على هذا تتخذ القرار المناسب، وبهذا الاختبار يكون

سليمان إما ملكاً من جملة الملوك الذين يرغبون في الدنيا ويسعون إليها، وهذا لها معه قرار، أو يكون رسولاً بعث إليها يدعوها إلى الله. وتتجلى حصافتها بهذا الاختبار الذي أجرته لتتخذ من نتائجه القرار المناسب...

بقي لنا بعد هذه النبذة التي جلت ملامح كل من الشخصيتين الرئيستين في الآيات؛ سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ، بقي لنا أن نحوط المشهد الكامل بإطار يحدد جزيئاته الرئيسة ودون إطناب... ثم نتناول ما جاء في التفاسير التي وقفت عليها... ونركز على الحقائق الآتية: ليس هناك ما يمنع من كون الذي عنده علم من الكتاب رجلاً من حاشية سليمان؛ أي ليس برسول؛ إذ الخارقة ومعرفة اسم الله الأعظم ليستا حكراً على الرسول كما هو أمر العصمة؛ إذ العصمة خاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وكذلك كل خارقة تظهر على يد ولي من الأولياء، إنما هي في الحقيقة في سجل الرسول الذي بالإيمان به واتباعه صار الولي ولياً...

كذلك الخارقة أمر أوجده الله سبحانه وتعالى وأظهره على يد من أظهره على يديه، ولا يشترط أن

تكون الخارقة التي يظهرها على يد الولي - وهي الكرامة - قد أعطى مثلها للرسول الذي آمن به الولي واتبعه... كما سنبين هذا بالدليل...

المشهد العام

من خلال تتبع الآيات نجد أنها رسمت لنا مشهداً متكاملاً، تشكل من مجموعة من الجزئيات الهامة الرئيسة، وبرز فيه الشخوص، ودار الحوار، ونبض بالحركة، ونضح بالمفاجأة، وعج بالمعاني المحددة العالية، وأضاء بجملته مجموعة من الحقائق المتصلة بالاعتقاد والكون.

هذا الكون القائم على سنن رتيبة هي وضع الله سبحانه وتعالى خلقاً وإمداداً.

وقد بني المشهد على مقدمات مثلها: ما أحاط به الهدهد لما أطل من عل على مملكة سبأ، ويبدو أنه لكثرة مصاحبته سليمان أبى أن يجول خارج نطاق القصور، ومن هنا وقف ليرصد قمة ما باليمن، وعرض ما تم من تبادل للرسائل والردود، والإحاطة بالمشهد وبمفرداته إحاطة سليمة تفضي إلى الفهم الصحيح لما نحن بصدده... فهناك بعدما تم موضوع

الهدهد وإحاطته بما عليه مملكة سبأ اعتقاداً وسلوكاً، وما قررت الملكة من الاختبار بالهدايا، وما تمخض عنه الاختبار حيث ظهر سليمان فوق قضية الهدايا، وأنه صاحب دعوة يريد أن تصل إلى مداها، وقد كان سليمان عليه السلام واضحاً حازماً في قراره الذي حمله إلى بلقيس رسولها ووافدها إليه ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٧] فأطفأ بوهج التهديد الصادق ما كان قد وقر في نفس الملكة من اعتزاز بالقوة الضاربة التي أعلن عنها قادتها، وقد حمل رسول الملكة الهدايا التي بعثت بها إليه، قال ابن كثير يوضح ما قاله لرسول الملكة وقد حمله هداياها: "ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد من بها، فإن عندي مما قد أنعم الله علي، وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال أضعاف هذا"!

حالتئذ أيقنت أنه نبي، وليس ملكاً تغريه الدنيا، وسلمت أنها لابد لها من السمع والطاعة، وبادرت إلى إجابته من ساعتها، ومعها حاشيتها، ولعمر الحق هذا من شدة فطنتها ونباهتها حيث لم تحتج إلى خارقة تكشف لها عن نبوة من دعاها، وإنما اكتفت بمعرفة موقفه من الدنيا وما فيها من زينة، وأصحاب البصائر يرون نور النبوة بالكلمة يفوه بها النبي، والموقف

يقفه، بل، ودون أن يتكلم، ما إن تصافح العين وجه النبوة حتى تعالن بما دل عليه الوجه المشرق ببعض أنوار الباطن، ألم يأتك خبر الحبر عبد الله بن سلام لما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً، وانشمر إليه الناس يستقبلونه، وكان قد وصل (قباء). يقول زرارة بن أوفى يروي عن ابن سلام قوله: "لما قدم رسول الله إلى المدينة خرجت أنظر فيمن ينظر، فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب". قالها شاهداً بها قبل أن يسمع حرفاً يفوه به من لا ينطق عن الهوى! فأي بصيرة هذه؟! وما أروعها!

ثم إليك حبراً آخر من أحبار يهود جذبه ما نضح به وجه النبي عليه الصلاة والسلام، هو زيد بن سعنة الذي قال يحكي كيفية إسلامه: " لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه؛ يسبق حلمه غضبه، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلماً، فكنت أتلطف له لأن أخالطه، وأعرف حلمه وجهله، ووافق أن احتاج إلى مال يسد به حاجة محتاجين أتوه يسألونه، فابتعت منه تمراً معلوماً إلى أجل محدد - وهو عقد السَّلَم - وأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب فيه، وأعطى المبلغ لطالبه، وقال له: اعجل عليهم، وأغثهم به، يقول

زيد: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، وخرج رسول الله في جنازة رجل من الأنصار، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، في نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة، ودنا من جدار ليجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني - يا محمد - حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم! قال: ونظرت إلى عمر، وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره، فقال: أي عدو الله! أتقول لرسول الله ما أسمع، وتفعل به ما أرى! فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: يا عمر! أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك يا عمر؛ أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن الاقتضاء، اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعته! قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ فقال: أمرني رسول الله أن أزيدك مكان ما رعتك، فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: الحبر، قال: فما دعاك أن تقول

لرسول الله ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟! قلت: يا عمر! علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه، يسبق حلمه جهله؛ ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً، فقد خبرتهما، فأشهدك - يا عمر - أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وأشهد أن شطر مالي - فإني أكثرها مالاً - صدقة على أمة محمد ﷺ". أرأيت الوجه الناضح بنور النبوة، والخلق الكريم كيف أخرجا زيداً من ضيق الضلالة إلى رحاب الهداية(١)؟!

وهناك أيضاً في المشهد القرآني المجلس الذي كان يديره سليمان عليه السلام، وما صدر فيه من أمر بإحضار العرش، وسنبين الباعث على ذلك في السياق، وقد ضم هذا المجلس الأقوياء من الملأ والحكماء والعلماء، وأرباب البصائر والمعرفة، وقد ضم المجلس - فيما يبدو - من كان له علم (باسم الله الأعظم) حيث أعلن عن قدرته على الإتيان بالعرش، وبزمن مذهل، وهنا يذكر بأن معرفة اسم الله الأعظم ليست حكراً كما دلت عليه النصوص على الرسل **عليهم السلام**. فنحن إذن أمام لوحة قرآنية رسمت فيها الكلمات ملامح شخصياتها الرئيسة، ونقلت لنا جوها

(١) وانظر قصته كاملة في: معرفة الصحابة لأبي نعيم: ٣ / ١١٨٤.

الحواري النابض بالتطلع إلى المراد، والسعي إلى تحقيقه، الحوار المتمثل بطالب ومطلوب، بسائل توجه إلى من في مجلسه بسؤال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨/٢٧] ومن يجيب يعلن عن قدرته على التنفيذ، وإجابة الطلب، مع لفتات تتناول بعض ما جاءت به الشريعة مما يبنى عليها المجتمع، كشهود فضل الله على الناس، وميدان الدنيا ميدان ابتلاء يظهر فيه الشكور والكفور...

هذا، وقد رسمت اللوحة القرآنية أو كلماتها الفرق بين الطاقات رسماً عجيباً دقيقاً يبهر من وقف عليه أيما إبهار؛ إذ أماطت عن فرق يجلي لنا ما في هذا الوجود من حقائق، ويميط عن مسلمة لا تنقضها الأيام مهما تطاولت هي: العلاقة بين السرعة والزمن والناتج، والعلاقة بين هذه الظواهر تفتح الآفاق أمام البشرية قاطبة؛ لتعمل على اختصار الزمن مع الإتقان مما يعين على عمارة الأرض بالخير والصلاح، وكون هذه النقلة الخاطفة للعرش خارقة لا يلغي معنى الإمكان فيها؛ إذ الخارقة لا تدخل في دائرة المستحيل، إنما هي خروج الأمر المعتاد عن سنته الجارية بمخرج. ونركز هنا على قضية السرعة في اختصار الزمن لنقطع مسافة ما، وكلما زادت قل الزمن

الذي نحتاجه، وبدهي أن زيادة السرعة ترجع إلى زيادة القوة، وكلما كانت القوة متناهية إلى غايتها كانت السرعة لا تُحَدُّ بحَدٍّ. ويضيء لنا هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: ٥٤/ ٥٠] وقوله: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥] ونرجع لنقول: نحن أمام مشهد فيه مطلب يمثله الإتيان بعرش الملكة، والمستجيب للمطلب اثنان... وفيه الفرق الزماني بين المستجيبين بناء على الفارق بين القوتين، وجسد ذلك أن المستجيب الأول طلب مهلة للإتيان بالعرش، تستوي مع الزمن الذي يجلس فيه سليمان عليه السلام مجلسه للقضاء، وهذا يحتاج إلى ساعات، أما الثاني فلا يكاد يحتاج إلى زمن بمعنى الزمن؛ إذ جاء تعبيره: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠]!!!..

ولك بحساب بسيط أن تتعرف سرعة كل من العارضين استعدادهما للإتيان بالعرش، والناتج واحد، وهو: الإتيان بالعرش، لكن الفارق إنما يمثله البعد الزماني، وهذا يطل بنا على ساحات وسائط النقل، والاختلاف بين سرعاتها لبلوغ غاياتها، وأن الزمن يتناسب عكساً مع السرعة؛ أي: كلما زادت السرعة قل الزمن، حتى يضمحل إن بلغت السرعة

أقصاها المتصور، والسرعة هي ثمرة القدرة، وهذا يجلي لنا اختلاف القدرات، وهذا الأمر لا يفسد علينا قضية (وحدة الأفعال) التي قررها علماء التوحيد، بل يوقفنا أمام من شهد كسبه، وأحال الأمر على ما أعطي من قدرة، ومن شهد قدرة الله سبحانه وتعالى واعتمد عليها في تحقيق ما يريد.. إذن وسائط النقل تختلف إنجازاتها باختلاف طاقاتها التي تترجم سرعة... ولا نعدم في المشهد دخول ملكة سبأ التي نقل الهدهد كبريات ملامحها العقدية والسلوكية والسياسية، وذلك أن الذي نقل ما جرى في مجلسها هو الهدهد، وإن لم يذكر صراحة.. وكان التراسل عبر وسائطه المتاحة يومها هو المنفرد في إيصال المطالب وبيان المرادات، ولم يكن وقتها سواها.

وهذا يجعلنا نقف أمام الحدث الذي نقله الهدهد إلى سليمان عليه السلام بحسب طاقته على الطيران، هذا الحدث نراه مباشرة بهمسه ولونه وحركته عبر الشاشة البيضاء، وما عدنا بحاجة إلى الانتظار لينقل لنا الهدهد الأخبار، وهذا من فضل الله على البشرية؛ إذ جعل في الكون ما به نتمكن من نقلها، فهل البشرية تقابل هذه النعمة بالتوظيف الشاكر المصلح؟!

وهذا كله يدل على المدخرات في هذا الكون الذي

وضع مسخراً لهذا الإنسان المكرم، ليخلص العبودية لله تعالى، وهذا يطوي أيضاً من النفس ما يمكن أن تستبعده تجاه المغيبات التي أخبرنا عنها الرسل **عليهم السلام**، مما يجعلها بعد بعض هذه الإنجازات الكشفية عن ذخائر الكون كأنها تشاهد ما غاب مما حدثت به النصوص، أو كأننا رأي عين، وهي قبالتنا...

مشهد نابض بالحياة، قوامه شخوص في القمة، وطاقات تكشف عن عظمة الله فيما خلق، ورصد لمجموعة من التطلعات والخبايا، وإماطة عن المذخور في هذا الخلق البديع، مشهد شهدته الحياة بعينين واسعتين، تجيدان قراءة سطور خطها قلم القدر على صفحة الوجود ضمن حقبة زمنية قصيرة، لكنها زاخرة بالدروس والعبر، وتلفت إلى ما يرقى بطاقات الإنسان إلى منازل مذهلة، ودرجات سامية...

فما مفردات هذا المشهد تحديداً؟

تقدم مفرداته حلقة في سلسلة من الأحداث والوقائع والمواقف، تكشف عن ماض شهدته هذه الأرض؛ ليكون من ذخائر هذه الأمة الخاتمة التربوية العقدية السلوكية القيمية.

إذ تناول مجلس سليمان للقضاء... ومفهوم القوة، وأثرها، وثمرتها هنا باختصار الزمان، وما يتصل بالعلم من الكتاب الذي فسر باسم الله الأعظم، والدعاء به.

وقد جاء التعبير القرآني - كشأنه دائماً في كل ما يتناوله ويعالجه - متألقاً؛ إذ طويت من سياق القصة فقرات ترك أمر ذكرها ليقف عليها القارئ النابه التالي لكتاب الله، والمتدبر لآياته، ومما طوي ما كان من أمر الإذن لمن عنده علم من الكتاب بالإتيان بالعرش على الوجه الذي يسند القول فيه إلى (آصف) من حاشية سليمان، ويميط هذا عن امتلاء صدر سليمان بعبق هذا المعنى الرفيع (اسم الله الأعظم) وثمراته، كذلك لم يذكر الاسم الذي دعا به، وإنما بقي مستتراً، وهذا على نهج ما قرره العلماء من أن الله سبحانه وتعالى أخفى اسمه الأعظم بين أسمائه الحسنى، كما أخفى ليلة القدر بين الليالي، ليدأب الخلق على البحث والتلمس، ولئلا يعرضوا عن سائر الليالي والأسماء، ولتبقى هذه المخفيات من الكنوز التي هي ثابتة وجوداً لكنها ليست مبذولة لكل غاد على دروب الحياة، وتبذل للمهتمين المؤهلين لها، وفيه لون من ألوان تربية الاهتمام بالأسمى في الصدور.

ويرصد هنا مجيء (الفاء) من قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠] فهو دال على سرعة الاستجابة وفوريتها؛ إذ (الفاء) تدل على التعقيب والترتيب، ويرجع هذا في حقيقته إلى الأمر الكوني الذي لا يتخلف عنه المأمور به، ولا معقب عليه من أحد، ويأتي في مواطن التعبير المباشر دون (فائه) بل ربما لم يذكر جواب الأمر لبداهة وقوعه، قال تعالى يكشف لنا ما كان من إبراهيم عليه السلام لما سأل الله تعالى أن يريه كيفية إحياء الموتى، ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠] فأنت ترى استجابة الطيور المقطعة المجزأة والموزعة على الجبال استجابة كونية؛ إذ إن دعوتهن كانت دعوة كونية، وهيهات أن يتأبى من دعي دعوة كونية على الداعي، ولهذا ختم النص بقوله: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠]، ولم يقل ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مثلاً؛ لأن العزة لا تغالب..

ومن هذا المعين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٣] فهو من الأمثلة التي حذف منها جواب الأمر، ويقدر تربية لهذه الحقيقة في

النفوس بالإشارة إليها، حيث لم يذكر (فماتوا) بل قال مباشرة: ﴿ثُمَّ أَحۡيَـٰهُمۡۚ﴾ فالأمر بالموت أمر كوني، وهو لا محالة ناجز، ولهذا حذف جواب الأمر (موتوا) اكتفاء بعلم التالي أنه لا يتأبى على أمر الله شيء، وأن الأمر الكوني لا يتخلف، ومثله قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٥] حيث لم يقل: (فكانوا) لبداهة هذه الكينونة؛ إذ لا يشك في أنهم لم يتأبوا عن التحول لما توجه إليهم الأمر به.

وقد رقت التربية القرآنية بالنفس الصافية هذا المرتقى، فكانت هناك محطات من الأوامر الشرعية، وأنت خبير بأنها تقع بالاختيار، بخلاف الأوامر الكونية، فإذا بالاستجابة لها، وكأنها قدرية لا ترد، اسمع قوله سبحانه وتعالى بهذا الشأن، واملأ الصدر روعة بهذا الأداء الذي استنهض النفوس هذا الاستنهاض ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَـٰرِهِمۡ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠] ومهما بحثت عن مقول القول في النص فإنك لا تراه مصرحاً به، بل تجده (مقدراً) دل عليه التركيب العجيب ﴿يَغُضُّواْ﴾ الذي يفهم منه أن المأمور به هو (غضوا) أي: (قل للمؤمنين غضوا من أبصاركم) يغضوا، فذكر الاستجابة تلبية للأمر هنا شأن المؤمن حين يأتيه من ربه تعالى أمر أو نهي، فإنه لا يتلبث

لحظة عن الإجابة ائتماراً أو انتهاء، فتلبية الأمر هنا كانت بأسرع ما يكون، ولا يحتاج إلى تدريب العين على الغض مدة زمانية حتى يستقر فيها معنى الغض (عن محارم الله) هذا، وقد أخفى الله أولياءه المقربين في عباده، ليرى فينا معنى الاحترام العام لجميع المسلمين، ولا يعني هذا عدم وجود علامات دالة، أو سلوك شاهد على الولاية، وإلا فلم ألف أبو نعيم (حلية الأولياء) وابن الجوزي (صفة الصفوة)؟!

وعليه، فإخفاء الاسم الذي أتى الدعاء به بالعرش، والدعاء الذي تضمن (اسم الله الأعظم) والاكتفاء بالاسم الموصول وصلته الدالة على ما اختص به الفاعل من العلم، من هذا الضرب، وذاك الميدان. كذلك أبهم في سياق العرض الدعاء والداعي به؛ لتظل القلوب أمام هذا الحدث متعلقة بعلام الغيوب سبحانه وتعالى؛ إذ هو في الحقيقة الذي أتى بالعرش عند دعاء الداعي، ويدلي بهذا المعنى قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٩]؛ إذ إن (الواو) التي أسند إليها فعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ضمير يعود على جماعة قد استغاثت، علماً أن الذي رفع يديه إلى السماء وتضرع بكلِّه وألَحَّ في الدعاء يوم بدر هو الرسول عليه الصلاة والسلام،

فكأن النص بصيغة الجمع فيه يقول: كل من يستغيث بصدق يأتيه الغوث، ولو حدده النص بالرسول عليه الصلاة والسلام لقالت النفوس: هو له ﷺ أن يستغيث، ويستجاب له، أما نحن فهيهات لنا ذلك، وأنى يستجاب لنا!.

وهنا نذكر بأن النص فيه مجموعة من الاحتمالات، وكلها سائغ من حيث المعنى؛ إذ لا يصادم مجال حقيقة من الحقائق الراسخة في سواه. وبهذا نكون أمام البحث عن مرجح من بين هاتيك الاحتمالات، والمرجح ينبني على أسباب مسلم بها، أو شبه مسلم بها، والنص من حيث هو قد لا يكون محتملاً لأوجه، ولكن طريقة التناول هي التي تسوغ وجهة ينضح بها ذهن وقاد يتناول النص، ويسعى إلى تفريع أبعاد منه ليست ظاهرة لكل متناول.

إلى رحاب التفاسير نتعرف منها ما ذهبت إليه مع ما ساقت من التعليلات أحياناً.

بداية أسوق النص موضوع السؤال:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ

﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ﴾ [النمل: ٢٧/٣٨-٤٠].

بصيرة في المفردات والتراكيب في الآيات

﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ﴾ و﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ مثلان في السرعة والأسرع. رآه: الضمير يعود للعرش. الاستقرار: التمكن في الأرض، وهو مبالغة في القرار، فالمستقر: الثابت الذي لا يتقلقل. وهذا الاستقرار خاص، وهو غير الاستقرار العام المرادف (للكون)؛ وهو الاستقرار الذي يقدر في الإخبار عن (المبتدأ) بالظرف والمجرور، ليكون متعلقاً بهما إذا وقعا خبراً أو حالاً، إذ يتعين به (كائن أو مستقر)، فإن ذلك الاستقرار ليس شأنه أن يصرح به. وابن عطية جعله في الآية من إظهار المقدر، وقد علق عليه في التحرير والتنوير بقوله: وهو بعيد.

﴿أَن يَرْتَدَّ﴾: قال في (البحر المديد): ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن ترده تبصر العرش بين يديك. وقال في (التحرير والتنوير): وارتداد الطرف حقيقته: رجوع تحديق العين من جهة منظورة تحول عنها لحظة، وعبر عنه بالارتداد لأنهم يعبرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر، فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك.

قال مجاهد: هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئاً حسيراً، وقيل: مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: أفعل كذا في لحظة عين، وهذا أشبه.

﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ﴾: رجل من أهل الحكمة من حاشية سليمان عليه السلام (التحرير والتنوير).

﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: علم مكتسب من الكتب؛ أي: من الحكمة، وليس المراد بالكتاب التوراة. قال في اللباب: اختلفوا في الكتاب؟ فقيل: هو اللوح المحفوظ، والذي عنده علم من الكتاب جبريل عليه السلام، وقيل: كتاب سليمان عليه السلام أو كتاب بعض الأنبياء، قال: وفي الجملة فإن ذلك مدح، وإن لهذا الوصف تأثيراً في نقل العرش، ولذلك قيل: (إنه اسم الله الأعظم)، وإن عنده وقعت الإجابة من الله في أسرع الأوقات؛ إذ حمل من (مأرب إلى الشام) في قدر ارتداد الطرف، قال التميمي: وروى عن ابن عباس: وعلم الكتاب، على هذا، علمه بكتب الله المنزلة، أو بما في اللوح المحفوظ، وقيل: علم كتاب سليمان إلى بلقيس.

﴿ءَاتِيكَ﴾: فعل مضارع، أو اسم فاعل منه.

﴿قَالَ هَٰذَا﴾: اسم الإشارة يعود إلى حصول مراده، وهو حضور العرش في مدة قليلة.

﴿عِفۡرِيتٌ﴾: اسم للشديد الذي لا يصاب ولا ينال، فهو يتقى لشره من عتاة الجن.

وفي (الكشف والبيان): المارد القوي، والقوي الشديد. وفي (بحر العلوم): العفريت من كل شيء المبالغ والحاذق في أمره. وفي (نظم الدرر): هو الداهية الغليظ الشديد، يطلق على المارد القوي، وعلى الرجل النافذ في الأمر المبالغ فيه مع دهاء وقوة أو خبث ومكر.

وفي (القرطبي): يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء، ومن الشياطين القوي المارد.

وفي (التفسير الميسر): مارد قوي شديد.

﴿مِن مَّقَامِكَۖ﴾: من مجلسك، وفي (القرطبي): من مجلسك الذي تحكم فيه. وفي (الكشف والبيان): مجلسك الذي تقضي فيه. قال ابن عباس: وكان له كل غداة مجلس يقضي فيه إلى منزع النهار. وفي (بحر العلوم): إلى أنصاف النهار.

﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾: قوي على حمله، أمين على ما فيه.

لا أنقص منه شيئاً ولا أبدله. ويدل التعبير على نفاسة ما بني عليه العرش من جواهر.

وفي (الدر المصون): الطرف: الجفن، عبر به عن سرعة الأمر، قال الزمخشري: هو تحريك أجفانك إذا نظرت، فوضع موضع النظر، وهناك من قال: الطرف بمعنى المطروف، الشيء الذي تنظره، لكن المعنى الأول هو الظاهر؛ لأن الطرف وصف بالإرسال.

قال الشاعر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً
لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

وقال القزاز: طرف العين: امتداد بصرها حيث أدرك.

والآن إلى رحاب التفاسير نتعرف منها ما ذهبت إليه، مع ما ساقت في ذلك من التعليلات.

قال القرطبي: لما قال سليمان للعفريت بعدما عرض قدرته على الإتيان بالعرش في مدة مجلس سليمان: أريد أسرع من ذلك! قال الذي عنده علم من الكتاب.... وأكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب (آصف بن برخيا) وهو من بني إسرائيل،

وكان صديقاً، يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: "إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا، يا حيُّ يا قيوم"، ولو ثبت هذا الحديث لكان نصاً لا يدع مجالاً للاجتهاد في أن الذي أتى بالعرش هو (آصف) مع تناوله طريقة ذلك أو وسيلته؛ وهي الدعاء. ويضاف إليه كلام الزهري بهذا الصدد: "دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم (يا إلهنا وإله كلِّ شيء إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، ايتني بعرشها)، فمثل بين يديه"...وقال السهيلي: الذي عنده علم من الكتاب هو (آصف بن برخيا) ابن خالة سليمان، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله سبحانه وتعالى.

وقيل - وهذا للسهيلي -: هو سليمان نفسه، ولا يصح في سياق هذا الكلام مثل هذا التأويل. وقد نقله القرطبي في تفسيره[1].

وقال ابن عطية: وقالت فرقة: هو سليمان عليه السلام. والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لما قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، فكأن سليمان استبطأ

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٠٤.

ذلك، فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾. واستدل قائلو هذه المقالة بقول سليمان بعدها: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

وما ذكره ابن عطية قاله النحاس في (معاني القرآن) له، وقال القرطبي معقباً: (وهو قول حسن إن شاء الله).

وقال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه (آصف بن برخيا) روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبي الله! امدد بصرك، فمد بصره نحو اليمن فإذا بالعرش، فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده..

وفي (قصص الأنبياء) لابن كثير (قصة سليمان عليه السلام):

قال ابن كثير مبيناً أمر الذي عنده علم من الكتاب في الآية: المشهور أنه آصف بن برخيا، وهو ابن خالة سليمان، وقيل: هو رجل من مؤمني الجان، فكان - فيما يقال - يحفظ الاسم الأعظم، وقيل: رجل من بني إسرائيل من علمائهم، وقيل: إنه سليمان عليه السلام. ثم علق على القول الأخير بقوله: هذا غريب جداً!!

وهناك من قال: هو ملك بيده كتاب المقادير، أرسله الله سبحانه وتعالى عند قول العفريت لسليمان عليه السلام ما قاله.

وقال ابن لهيعة: هو الخضر ﷺ، وقال ابن زيد: الذي عنده علم الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر البحر، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض، وهل يعبد الله أم لا؟ فوجد سليمان فدعا باسم من أسماء الله فجيء بالعرش.

وفي (التحرير والتنوير): قال: هذه المناظرة بين العفريت والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة لقوله: ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضاً، فذكر في هذه القصة مثلاً لتغلب العلم على القوة، ولما كان هذان الرجلان مسخرين لسليمان، كان ما اختصا به من المعرفة مزية لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته، أن سخر الله له مثل هذه القوى، ومقام نبوته يترفع عن أن يباشر بنفسه الإتيان بعرش بلقيس. وقال أيضاً: وذكر أهل التفسير أنه آصف بن برخيا، وأنه كان وزير سليمان ﷺ، وذكر علة الإحضار فقال: لما علم سليمان أنها ستحضر إليه، أراد أن يبهتها بإحضار عرشها الذي تفخر به وتعده نادرة الدنيا. وكشف عن المراد من طلبه من

الملأ ما طلبه، فقال: خاطب الملأ ليظهر منهم منتهى علمهم وقوتهم...

وفي (التفسير الميسر): ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ فأذن له سليمان فدعا الله فأتي بالعرش.

وفي (الدر المنثور للسيوطي): أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ (كان رجلاً من بني إسرائيل يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب). وأخرج ابن جرير عنه كان اسمه تمليخا. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد لما قال العفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال سليمان: إني أريد أعجل من هذا! ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: فخرج العرش من نفق من الأرض، وعنه: أن اسمه (أسطوم)، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ قال: آصف كاتب سليمان، وعن يزيد بن رومان قال: هو آصف بن برخيا، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. وعن ابن لهيعة قال: هو الخضر، وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال: هو آصف بن برخيا.

وفي (الكشف والبيان) للنيسابوري: لما قال

العفريت لسليمان ما قال، قال له: أريد أسرع من هذا! ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾: اختلفوا فيه: منهم من قال: جبريل، أو ملك أيد الله به سليمان، بل كان رجلاً من بني آدم، واختلفوا فيه أيضاً: فقال قائل: آصف بن برخيا، وكان صديقاً، وهذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ولو ألقينا نظرة إلى ما جاء في (اللباب في علوم الكتاب) لقرأنا: أن أكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا؛ وزير سليمان، وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم.. قال: وقيل: بل هو سليمان نفسه، والمخاطب هو العفريت الذي كلمه وأراد سليمان إظهار معجزة، فتحداهم أولاً ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت!!

وأنت ترى حشر الفعل: (فتحداهم) في الشرح حشراً، ليسوغ كون الخارقة معجزة، ولينسجم هذا مع تعريفها الذي سنورده لاحقاً..

قال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان، قال له عالم من بني إسرائيل آتاه الله علماً وفهماً: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. قال سليمان: هات، قال: أنت النبي، وليس أحد أوجه عند الله منك، فإن

دعوت الله، وطلبت إليه كان عندك (يقصد العرش).
قال سليمان: صدقت، ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت. هذا، وضعف السهيلي ذلك، بأنه لا يصح من سياق الكلام، قال ابن الخطيب: وهذا القول؛ أي إسناد الفعل إلى سليمان عليه السلام، أقرب الوجوه: لأن لفظ (الذي) موضوع في اللغة للإشارة إلى شخص معين، عند محاولة تعريفه بقضية معلومة، والشخص المعروف بأنه عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام، فوجب انصرافه إليه، وأخص ما في الباب أن يقال: كان آصف كذلك أيضاً! لكنا نقول: إن سليمان كان أعرف بالكتاب منه؛ لأنه هو النبي، فكان صرف اللفظ إلى سليمان أولى، كذلك: إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق. كذلك: قال سليمان لما رأى العرش: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي. فظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله سبحانه وتعالى بدعاء سليمان، قال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا، روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبي الله، امدد بصرك،

فمدَّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش فما ردَّ سليمان بصره إلا وهو عنده...

قال القرطبي في معرض بيانه لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: ارتداد الطرف مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، ثم قال: لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهو كرامة، وكرامة الولي معجزة النبي. قال القشيري: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال: إن الذي عنده علم... هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وعند هؤلاء ما فعل العفريت ليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرون على مثل هذا.

والتعريج على ما في (الكشاف) مفيد حيث قال: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رجل كان عنده اسم الله الأعظم، وهو (يا حي يا قيوم)، وذكر صيغة أخرى تتضمن الاسم الأعظم، قال: وقيل: هو آصف بن برخيا كاتب سليمان، كان صديقاً عالماً. وقيل: اسمه أسطوم... وقيل: هو جبريل... أو ملك أيد الله به سليمان، وقيل: هو سليمان نفسه، كأنه استبطأ العفريت فقال له: أنا آتيك ما هو أسرع مما تقول.

وفي (الكشف والبيان) للنيسابوري قال: اختلف العلماء في الدعاء الذي دعا به آصف عند الإتيان بالعرش، فروت عائشة أن النبي ﷺ قال: إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف (يا حي يا قيوم...). وعن الزهري: يا إلهنا وإله كلِّ شيء إلهاً واحداً... وقال مجاهد: يا ذا الجلال والإكرام... وأنت ترى أن مسألة اسم الله الأعظم ليست خاصة بالنبوات، بل يعلمها الكثير من عباد الله المكرمين.

وفي (بحر العلوم): قال سليمان مخاطباً العفريت: أريد أسرع من هذا، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ آصف بن برخيا، وكان وزيره ومؤدبه في حال صغره، وكان يعلم الاسم الأعظم، فقال: يا إلهنا إله كلِّ شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت... وذهب المعتزلة إلى أنه جبريل.. قال الشيخ الإمام: لأنهم لا يرون كرامة الأولياء... قال: وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا، إذ قال له سليمان: لقد أسرعت إن فعلت ذلك، فدعا باسم الله الأعظم، فإذا السرير قد ظهر بين يدي سليمان، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ شهد أن ما فعل ليس من قوة جلسائه، إنما هو صنع ربه سبحانه وتعالى.. ولعلي هنا أشير إلى أن العبارات التي يؤتى بها ليبدو المشهد متكاملاً ليس لها سند في كثير منها إلى المعصوم عليه السلام،

فلا ترد حيث لا تتعارض مع النصوص لدينا، ولا تعدُّ قطعية لا مفر منها؛ إذ هي في أغلبها ترميم للمشهد الذي جاء الكتاب بخطوطه العريضة ذات الدلالات على ما أريد من عرضه؛ إذ إن القرآن كتاب هداية وتربية وإرشاد وبصائر، ولذا يعرض من القصة أو المشهد ما يؤدي هذه المقاصد أو بعضها...

وفي (نظم الدرر) قال: لما علم العفريت أن غرض سليمان الإسراع قال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وأوثق الأمر وأكده بقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لا يخشى عجزي عنه، ولا يخاف انتقاصي شيئاً منه...

ثم ذكر أن القصة سيقت لإظهار فضل العلم المستلزم للحكمة، دلالة على أنه سبحانه وتعالى حكيم عليم. قال حاكياً لذلك استئنافاً جواباً لاستشرافه عليه السلام لأقرب من هذا ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ لما كان لكتب الله من العظمة ما لا يحيط به إلا الله، أشار إلى ذلك بتنكير ما لهذا الذي يفعل مثل هذا الخارق ﴿عِلْمٌ﴾ تنبيهاً على أنه اقتدر على ذلك بقوة العلم ليفيد ذلك تعظيم العلم، والحث على تعلمه، والعلم الشرعي بدليل ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وفيه إشارة إلى أن من خدم كتاب الله حق الخدمة كان الله له، كما ورد في شرعنا "كنت سمعه

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...". أي إنه يفعل له ما يشاء، وقيل في تعيينه: إنه (آصف بن برخيا) وكان صديقاً عالماً .﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾، وهذا أظهر في كونه اسم فاعل؛ لأن الفعل قارن الكلام، وبين فضله على العفريت بقوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إذا طرفت بأجفانك، فأرسلته إلى منتهاه ثم رددته. وقال العز بن عبد السلام: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ هو مَلَك أيّد به سليمان، والعلم الذي عنده هو ما كتب الله لبني آدم، وقد أعلم الله الملائكة كثيراً منه، أو هو بعض جنود سليمان، وعلم الكتاب: علمه بكتاب سليمان إلى بلقيس. وقد أورد أقوال العلماء في تحديد مَن ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾، ثم أسند إلى من أتى به أنه دعا باسم الله الأعظم، فإذا العرش بين يدي سليمان، قال: ولم يكن سليمان يعلم ذلك الاسم...

قال صاحب (المحرر الوجيز): لما علم سليمان بانفصالها، أراد أن يغرب عليها بأن تجد عرشها عنده، ليبين لها أن فعله لا يضاهى، فدعا الذي عنده علم من التوراة، وهو الكتاب المشار إليه باسم الله الأعظم، وجيء بالعرش بهذا الدعاء. قال: وجمهور الناس على أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه

(آصف).... استدل من قال: إنه سليمان بقوله بعد حضور العرش: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، واستدل مناقضه به إذ كل من الأمرين على سليمان فضل من الله، وعلى القول الأول المخاطبة لسليمان.

وفي (تفسير أبي حاتم الرازي): ذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كاتب سليمان قال له: ارفع بصرك، فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه إذا هو بالسرير.

وفي (التحرير والتنوير): علم سليمان أن ملكة سبأ لا يسعها إلا طاعته ومجيئها إليه، أو: ورد له منها أنها عزمت على الحضور عنده عملاً بقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣١]، ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٨] ثم يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطت رحال الملكة في مدينة سليمان، وقبل أن تتهيأ للدخول على الملك، أو: حين جاءه الخبر بأنها شارفت المدينة، فأراد أن يحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه ليريها مقدرة أهل دولته.. وقد يكون عرشها محمولاً معها في رحالها، جاءت به معها لتجلس عليه خشية ألا يهيئ لها سليمان عرشاً؛ فإن للملوك تقاديرَ وظنوناً يحترزون منها خشية الغضاضة.

هذه كلها تصورات يرى صاحبها أن النص يحتملها، ولكن ليس هناك ما يقطع بواحد منها؛ إذ النص لا يساعد على تعيين ذلك.

وفي (النكت والعيون): هناك أقوال في ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ منها: ملك أيد الله به سليمان، والعلم هو ما كتب الله لبني آدم، حكاه ابن بحر، ومنها: بعض جنود سليمان، والكتاب هو كتاب سليمان الذي كتبه إلى بلقيس، وثالثها: سليمان نفسه؛ قال ذلك للعفريت لما عرض استعداده ليأتي بالعرش، وآخرون قالوا: هو رجل من الإنس، واختلفوا في تسميته؛ فابن رومان قال: آصف، ومجاهد قال: أسطوم، وقتادة قال: تمليخا، وابن لهيعة قال: الخضر، وعلم من الكتاب على هذا هو اسم الله الأعظم. وقال عبد الرحمن بن زيد: لم يعلم سليمان ذلك الاسم وقد أعطي ما أعطي.

وفي (أسير التفاسير): أراد سليمان أن يؤتى بالعرش بأسرع مما عرض العفريت، فقال له رجل يعرف اسم الله الأعظم، وهو الذي ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: إنه مستعد أن يأتي به قبل أن تطرف عينه، ودعا الرجل باسم الله الأعظم، فمثل العرش بين يدي

سليمان، فلما رآه مستقراً بين يديه قال: هذا من فضل الله علي.

وقيل: بل المعنى أن سليمان قال للجني: أنا أحضره في لمح البصر، وكان كما قال، فلما رآه أمامه شكر، قال معلقا على هذا: والأول أظهر..

وفي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) للواحدي: هو آصف بن برخيا، وكان قد قرأ كتب الله تعالى.

وفي (البحر المديد): قول العفريت: ﴿مِن مَّقَامِكَۖ﴾ من مجلسك إلى الحكومة، وكان يجلس إلى تسع النهار، أو نصفه، آتي به على ما هو عليه، لا أغير منه شيئاً، ولا أبدله، فقال سليمان: أريد أعجل من هذا، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو آصف بن برخيا وزير سليمان، كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، قيل: هو (يا حي يا قيوم) أو (يا ذا الجلال والإكرام) أو... وساق أقوالاً أخرى.. قال: وقيل: هو الخضر أو جبريل أو ملك بيده كتاب المقادير، وعلق ابن كثير على أنه (الخضر)، فقال: وهو غريب جداً.

وقال في (نظم الدرر): لما كانت الرؤية قد تكون عن بعد ومجازية، و(العندية) كذلك، بين أنها حقيقة بإظهار العامل في الظرف، وهو ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي:

ثابتاً ثباتاً لا مرية فيه، قال جمال الدين بن هشام في (المغني): زعم ابن عطية أن ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ هو المتعلق الذي يقدر في أمثاله قد ظهر، والصواب ما قاله أبو البقاء وغيره من أن هذا (الاستقرار) معناه: عدم التحرك، لا مطلق الوجود والحصول، وهو كون خاص.

وجاء في (مختصر ابن كثير): وبهذا يظهر أن مراد سليمان عليه السلام بإحضار العرش إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد من قبله، ولا يكون لأحد بعده، وليتخذ حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم.. قال ابن عباس: هو آصف كاتب سليمان عليه السلام.

وفي (الظلال) للسيد قطب: يتذاكر سليمان مع جنوده لإحضار العرش الذي خلفته بلقيس في بلادها محروساً مصوناً، استطال سليمان الفترة التي يحضر العفريت فيها العرش.. يفهم أنه - أي الذي عنده علم من الكتاب - رجل مؤمن على صلة بالله، موهوب سراً من الله يستمد به من القوى ما لا تقف لها الحواجز والأبعاد، وهذا أمر مشاهد أحياناً على أيدي بعض الصالحين، وهو خارج عن مألوف البشر.

وقال: ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه، ونحن نرجح أنه غيره، فلو كان هو لأظهره السياق باسمه، ولما أخفاه، والقصة عنه، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر، وبعضهم قال: إن اسمه آصف بن برخيا، ولا دليل عليه..

وفي (فتح القدير): قال أكثر المفسرين: اسمه آصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان وزيراً لسليمان، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل أعطى.

وقال ابن عطية: وقالت فرقة: هو سليمان نفسه، وقيل: الخضر، قال: والأول - أي إنه آصف- أولى.

وفي (صفوة التفاسير): القائل هو آصف، كان من الصديقين يعلم اسم الله الأعظم، وهو الذي أتى بعرش بلقيس، فدعا الله فحضر العرش حالاً.

وفي (زاد المسير): اسمه آصف بن برخيا، قال ابن عباس: دعا، وكان يقوم على رأس سليمان بالسيف، فبعث الله الملائكة فحملوا السرير.

وفي (جامع البيان) للطبري: قال سليمان: أريد أعجل من ذلك.. والذي عنده علم من الكتاب رجل من الإنس عنده علم من الكتاب، فيه اسم الله الأكبر

الذي إذا دعي به أجاب... فاحتمل العرش احتمالاً حتى وضع بين يدي سليمان، والله صنع ذلك.

وفي تفسير ابن أبي حاتم الرازي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ﴾ قال: آصف كاتب سليمان، ووجه ثان عن ابن لهيعة أنه الخضر، وعن قتادة: آصف.. وذكر أوجهاً في هذا الاتجاه؛ أي بعيداً عن كون سليمان مما يراد، وساق نص الدعاء عن طريق الزهري، قال: دعا الذي عنده علم: يا إلهنا وإله كلِّ شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، قال: فمثل له بين يديه، وساق صيغاً أخرى من الدعاء. وقال ابن عباس: قال آصف لسليمان: ارفع بصرك، فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه إذا هو بالسرير.. وعن قتادة قال: فعلمت الجن يومئذ أن الإنس أعلم منها...

وورد في بعض التفاسير طريقة إحضار العرش على أوجه مما لا يشير النص إليها، ولا مجال للتأكد من أي منها خارج النص. ومما ذكر في هذا: فدعا آصف، فغاب العرش في مكانه بمأرب، ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه...

هذا، وقد عرض العلماء للغرض من استقدام العرش، ونقل عن ابن زيد وابن عباس: استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله سبحانه وتعالى. ومما قالوه: لعله أوحي إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يغرب عليها، ويريها بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يديه، مع إطلاعها على عظمة قدرة الله، وعلى ما يشهد لنبوته ويصدقها...

وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره؟ اختباراً لعقلها.

قالوا: والظاهر ترتيب هذا الأخبار على حسب ما وقعت في الوجود، وهو قول الجمهور(١).

هذا، وقد جاء في (أحكام القرآن) لابن العربي: ما الفائدة في طلب عرشها؟

قيل: فيه أربع فوائد.... وهنا أذكر اثنتين منها اكتفاء بهما عن الأخريين:

الأولى: أراد أن يختبر عقلها في معرفتها به.

---

(١) وانظر: البحر المحيط لأبي حيان.

والثانية: أراد أن يجعله دليلاً على نبوته؛ لأخذه -أي العرش- من ثقاتها، دون جيش ولا حرب.

وكأني أمام استحضار العرش ألمح الرمزية فيه؛ حيث إن وضع اليد عليه بمنزلة وضع اليد على المملكة كلِّها، فهو بمنزلة سقوط عاصمة العدو بيد المنتصر، والله أعلم.

وقد ساق الأقوال المبينة لمن عنده علم من الكتاب فقال: وفي تسميته خمسة أقوال لا تساوي سماعها، وليس على الأرض من يعلمه، وهذا يذكر بما ساق في كتاب له عن حكم ليلة النصف من شعبان وما ورد فيها، فإذا به يقرر أنه ليس فيها حديث يساوي سماعه، وقد رد عليه العلماء ردوداً رائعة، وبينوا أن ما قاله مجازفة يفضحها ورود مجموعة من الأحاديث في فضل ليلة النصف من شعبان ارتقى بعضها إلى الصحة....

وفي (مفاتح الغيب) للرازي: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾، فيه دلالة على أنها عزمت على اللحاق بسليمان، وأن أمر ذلك العرش مشهود، وقد أحب أن يحصل عنده قبل حضورها.. قال: واختلفوا في غرض الإحضار لدى سليمان على وجوه؛ منها: دلالة لبلقيس على قدرة الله

سبحانه وتعالى تعالى، وعلى نبوة سليمان حتى تضم تلك الدلالة إلى سائر دلالات لديها سلفت، أو أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم يعرض عليها ليعلم أتعرفه أم تجهله، وفيه اختبار عقلها، وجاء النص بهذا ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ﴾ [النمل: ٢٧/٤١] أو – كما قال قتادة- أراد أن يأخذه قبل إسلامها؛ لأنه لو أسلمت لما حل له أخذ مالها، أو أن العرش سرير المملكة، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه.

ثم عرج الرازي على قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فقال: فيه بحثان:

الأول: اختلفوا في ذلك الشخص على قولين: قيل: كان من الملائكة... وقيل: من الإنس؛ وعلى الأول: هو جبريل أو ملك أيد الله به سليمان.. والثاني: الخضر قاله ابن مسعود. والمشهور من قول ابن عباس أنه آصف بن برخيا وزير سليمان، وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم إذا دعا به أجيب، والثالث - قاله قتادة- رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم، وهناك قول ابن زيد: كان رجلاً صالحاً في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى

سليمان.. وخامس الأقوال: بل سليمان نفسه، والمخاطب هو العفريت الذي علمه، وأراد سليمان إظهار معجزة: فتحداهم أولاً، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت.. قال: وهذا القول أقرب لوجوه؛ أحدها: أن لفظ (الذي) موضوع في اللغة للإشارة إلى شخص معين... وساق ما ذكرناه من قبل. وعرض ما يرجح لديه أنه سليمان عليه السلام حيث قال: لو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان، وإنه غير جائز.

ونجد في تفسير (التحرير والتنوير) ما يلي: أراد استحضار العرش ليطلعها على عظيم قدرة الله؛ إذ قومها يعبدون الشمس، وعلى ما أعطاه الله من الملك العريض والنعم الجليلة والقوة الخارقة؛ حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد في زمن لا يكاد يحسب، وكأن سليمان عليه السلام استبطأ المدة المعروضة من العفريت، فقام جندي آخر من جنوده تناوله النص بما اتصف به ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ وجاء أنه آصف بن برخيا، وهو من صلحاء بني إسرائيل، آتاه الله من لدنه علماً، وكان وزيراً لسليمان، ثم إذا كان فرد من أفراد مملكته بهذه المنزلة فما الذي تقول في سليمان نفسه؟!

وإن كان لا يهمها أن تعلم مَن أحضر عرشها إلى مملكة سليمان، فإنما يبهرها الحدث نفسه؛ وهو الإحضار، وعدم نسبة الإحضار إلى واحد من مملكة سليمان أقوى على تركيز ذهنها على أن المحضر له هو الله سبحانه وتعالى بصرف النظر عن السبب، وهذا يبعث الهيبة في نفسها من مجمل ملك سليمان، ولعل اكتفاء النص بذكر الفاعل بوصفه الذي يؤكد صلته بالله تعالى لينفح بهذا المعنى البهيج الذي تتلألأ منه أنوار الحضور مع الله سبحانه وتعالى؛ لئلا يشغل الرائي أو السامع بمن كان سبباً فينشغل به عن باطنه المذهل.

وما قيل من أنه سليمان نفسه، اضطر قائله إلى توجيه النص إلى غير وجهته الظاهرة ليتلاءم مع طرحه، علماً أن من أسند الأمر إلى جبريل أو ملك من الملائكة لم يحجر عليه ما طرح لإمكانه مع التوجيه، ولكن المشهور عند المفسرين أنه آصف بن برخيا. وجاء بوصفه لينسب إليه ما نسب رافعاً راية العلم، وقمته العلم بالله، وليدل على شرف العلم وفضله وشرف حامليه وفضلهم، وأن هذه الكرامة وجهها الله لهذا الرجل، فكانت بسبب ما آتاه الله من علم.. ولو كان الأمر مسنداً لسليمان لكان داخلاً في مقام النبوة الرفيع فحسب.

وهنا لفتة: لما رأى سليمان العرش مستقراً عنده لم يغتر ولم يأخذه الزهو ولا العجب، وحاشا للأنبياء أن يتملكهم ذلك، بل لهج لسانه بـ ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ فعينه على الحدث حاصل، وقلبه بشهود عطاء الله ممتلئ، ولسانه يترنم بما نضح به قلبه، وهذا ينسجم مع مقام العارفين الذين يشهدون فضل الله عليهم، وأن النعمة مهما عظمت لا تغفل عن المنعم. ولا تلفت القلب عن شهوده، ولك أن تلاحظ الفرق بين من كان حاضراً مع المنعم، وهو يتعامل مع النعمة، ومن كان حاضراً مع النعمة التي تأخذ بقلبه إلى رحاب المنعم، وبين من هو غارق في النعمة وغافل قلبه عمن أنعم. اقرأ قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٤٧] وقوله لهذه الأمة - لو درت منزلة ما أعدت له-: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٢].

وبهذا ختم المشهد البديع المكثف الفياض بالمعاني الثرة، بما أمر به سليمان أن يفعل بالعرش؛ ليدخل ملكة سبأ في الاختبار الذي يقدر به نباهتها وفطنتها وحسن إدراكها، وأن الظواهر، مهما كانت براقة ومتقنة، لا يجوز في حكم القلوب أن تخفي بواطنها وتطمسها من عين البصيرة.

وإطلالة سريعة على ما جاء في تفسير (البيضاوي) نجده قد قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ هو آصف بن برخيا؛ وزيره، أو الخضر، أو جبريل، أو ملك أيده الله به، أو سليمان نفسه، فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم، وأن هذه الكرامة كانت بسببه، ويكون الخطاب بقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ للعفريت، كأنه استبطأه فقال له ذلك، أو أراد إظهار معجزة... ثم أراهم أنه يتأتى له ما لا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم....

ووضَّح معنى تنكير العرش فقال: (تنكير العرش بتغيير هيئته وشكله، لاختبار اهتدائها إليه مع التنكير فيه،والتعرف على حصافتها). وقد أجابت بجواب يدل على ذلك؛ لأنها قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٢٧/٤٢] أي: ليس هذا بعرشي، وليس غيره أيضاً، وكأن الإضافة إلى العرش من أدوات التنكير أبعدت العرش عن حاله التي تعرفها، ولكنها لم تطمس حقيقته التي هي لب ما وقع عليه التنكير... ووراء هذا شلال من العلم الرائع الزلال، الذي ينقي عين البصيرة من غبش رؤية الحوادث التي هي صنع الله وإبداعه، وهي خلقه وإمداده..

ويأتي الشعراوي رحمه الله ليدلي بدلوه الموهوب

في غمار الحدث، ويقول: إن ربنا سبحانه وتعالى ترك من غيبيات كونه المادي، ما يثبت صدقه في التحدث بغيبيات أخرى، وجاء الحق بواحد من الإنس حتى لا يظن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته "من عنصر تكوينه"، بل هي من عطاء الذي كون الأكوان، وعليه فالمسألة ليست عنصرية، بل هي إرادة الله في الأشياء، وقد جعل الله من الجنس القوي بقانونه - وهم الجن - محكوماً لواحد من الإنس، ويجعله تحت إمرته، فالحق يعطي من طلاقة قدرته للجنس الضعيف بالنسبة إلى سواه شيئاً يستطيع به أن يسخر الأقوى من الجن.. إذن المسألة تتناول طلاقة قدرة الله خارج دائرة ما عرفنا من سنن كونية. ليست عنصرية الجن هي التي أعطت ما به التميز، إنما هي إرادة (المعنصر) أي: خالق العناصر، وقد جعل الإنسان حكماً على الجن ومخدومهم، يسخرهم على ما يريد، وقد ظهر في مجلس سليمان من الإنس ما هو فوق طاقة العفريت؛ لأنه سيأتي به قبل أن ينتبه سليمان من رد طرفه الذي أرسله يبصر به شيئاً، والعفريت جعل الفترة التي يحتاج إليها لجلب العرش تعادل مقام سليمان، ومقامه: هو الفترة التي يقعدها سليمان في مجلسه.. وقال في سياق كلامه: أما نحن فنميل إلى أنه

(سليمان) وفرق كبير في القدرات بين من يأتي بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه، وبين من يأتي به في طرفة عين، ونقل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة، والزمن - كما هو معلوم - يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً، فكلما زادت القوة قل الزمن.. وفرق ما بين السيارة والطيارة والدراجة العادية في القوة والزمن الذي يحتاج إليه قاطع المسافة على أي منها... وما دام الزمن يتناسب مع القوة فلا ينسب الحدث هنا إلى من أسند إليه في الظاهر، بل ينسب إلى الله الذي لا يحتاج إلى زمن أصلاً فيما يريد خلقه، وفي قول سليمان للجني ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ تحدٍّ للعفريت حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان.

قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ التعبير بالفاء مع "لما" الظرفية الحينية، يظهر أن المسألة لا تتحمل أخذاً ورداً، بل قد تم تنفيذها فوراً، فإن العرض بأقل من رد الطرف، والتعبير بالطرف دون البصر، قد ألغى الزمن أو كاد، وكأن المشهد يدلي بشهادة للمخلوقين يقول فيها: إياكم أن تظنوا أن ما بكم من تميز هو من عنصركم، إنه (إقدار الله لكم) وإرادة من عنصر العناصر، وأقامها على ما أقامها عليه!!.

ولما علم سليمان عليه السلام أنهم مقبلون من اليمن أراد نقل عرشها قبل وصولها، وما داموا قادمين فعلى من يذهب ليفك عرشها، أو ينقله محمولاً كما هو أن تكون له طاقة فوق قدرة الإنسان العادي، لذلك لم يتكلم الإنسي العادي في أثناء طلب سليمان وتكلم الجني والإنسي غير العادي، وهو الذي عنده علم من الكتاب.

وفي (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي: قيل: هو من الملائكة، وهو جبريل، وقيل: رجل من الإنس واسمه (آصف) كاتب سليمان، وكان صديقاً عالماً، قاله الجمهور. أو هو (الخضر) قاله ابن لهيعة، ومن أغرب الأقوال أنه (سليمان) عليه السلام، كأنه يقول لنفسه ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾ أو يكون خاطب به ذلك العفريت، وحكى هذا القول الزمخشري وغيره، كأنه استبطأ ما قال العفريت، فقال له سليمان ذلك على تحقير لعرض العفريت.. والعلم الذي أوتيه (اسم الله الأعظم)، وقوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ قبل أن تغمض عينيك وتفتحهما، وارتداد الطرف هو أن نطرف، ويجلي هذا قصر المدة، وما قيل في بيان كيفية الإحضار لا طائل منه، حيث قال قائل: نزل على سليمان من الهواء، وآخر قال: نبع من الأرض، وثالث: ظهر من تحت عرش سليمان.

وأنت ترى أن رصد الكيفية لم يتعرض لها النص القرآني، وإنما ذكر السرعة والأداء، وحذفت تفاصيل يسهل معرفتها، وتتعلق بمفردات الإنجاز، والضوء سلط في النص على أن العرش قد أحضر مباشرة، وبأقل زمن.

وذكر ما قاله أبو البقاء بشأن قوله: ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ قال: مستقراً وثابتاً غير متقلقل، وليس بمعنى الحضور المطلق، إذ لو كان كذلك لم يذكر؛ لأنه يكون - عندها - كوناً عاماً... ومعلوم أن الكون العام - على قواعد النحو - يحذف وجوباً..

ومما ينضح به النص من معان ودلالات أن (من عنده علم...) غلب قدرة العفريت من الجن، وهذه هي المعادلة، والمقصد من ذكر عرض العفريت أولاً مع تحديده مدة للقيام بجلب العرش، مع ما قر في نفوس بني آدم من تصور للجن، وأن لهم قدرات خارقة، وقد عرض جانباً منها في موقف العفريت مما طلب سليمان عليه السلام، أقول: المقصد لئلا يغفلوا عن أنهم يمكن أن يتسلحوا بما هو فوق ذلك، كما يجلي النص أنه ليس هناك أقوى ممن يلوذ بجناب الله الأقوى متوكلاً ومعتمداً عليه.

وقد علمنا من النص ألا نكتم مواهب التابعين، وأن تعطى لهم الفرصة، ويفسح لهم المجال ليظهروا مواهبهم، وأن يقول كل ما عنده، ولو لم نكن نعرفها فينا، ومن لاحظ في سياق المشهد المتكامل قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٢] يدري هذا المعنى اللطيف، ثم: أيعد قول الهدهد هذا انتقاصاً لمعلومات سليمان عليه السلام؟ حاشا للهدهد أن يقصد ذلك، لا يعد بحال انتقاصاً لمنزلة سليمان العلمية، إنما يعد تكريماً له؛ لأن الله سبحانه وتعالى سخر له من يخدمه، وفرق بين أن تفعل الشيء، وبين أن يُفعل لك، فحين يُفعل لك فهذه زيادة سيادة وعلو مكانة.

ويطرح هنا السؤال النابع من المشهد نفسه: أليس من الكرامة لسليمان أن يحضر له عرشها، وهو في مكانه، وبواسطة أحد رعيته وجندي من جنوده؟

ويكشف النص عن أن الهدهد لم يعرف بمملكة سبأ، مما يدل على أن سليمان يعرفها، ويعرف ما فيها من ملك، إنما الذي غاب عنه، ولم يعرفه ما كانت عليه من فخامة عرش، وسوء عبادة هي وقومها؛ إذ كانوا يعبدون الشمس، ولاحظ معي مجيء المرأة في

النص نكرة ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٣]، وبنصه في قوله: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٣] نقول فيها: العرش هو مكان جلوس الملك، وكان العرش متوافقاً عادة مع عظمة الملك. وعليه فالعرش مجلس المتمكن الذي يتولى تدبير الأمور، وعرش الرحمن سبحانه وتعالى هو الذي له العظمة المطلقة بالنسبة إلى كل الخلق، وعظمة عرش ملكة سبأ بالنسبة إلى أمثالها من الملوك. ودراية سليمان أنهم سيأتونه تجلت في قوله: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٨] حيث رد هدية الملكة؛ ليبين لها أنه صاحب رسالة ومبدأ، لا صاحب مصلحة وجمع دنيا، وهذا شأن الرسل قاطبة إذ هم أصحاب رسالة لا يطلبون الدنيا، ولا ما فيها، وشأن من سار مسيرتهم وانتهج مناهجهم وشرب من حياض قلوبهم المترعة.

إن سليمان حدد زمان الإتيان بقوله: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي﴾، ومهمة استحضاره على هذا فوق قدرة البشر كما يبدو؛ لذا لم يتكلم إلا العفريت، والجن العاديون سكتوا.. وجاء كلام العفريت مجملاً؛ إذ لم يكن صارماً في تحديد المدة حيث ربطها بالمجلس، والمجلس قد يطول وقد يقصر، فكان كلامه من عرضه للمدارسة، حيث إنه يستغرق وقتاً غير منضبط، فهو قد

تعهد بالمجيء بالعرش في هذه المدة، وذكر مع ذلك مؤهلات القوة والأمانة، فكأنما يقدم سيرته الذاتية.

ثم لما تكلم الآخر لم يحدده النص إلا بالوصف، وتناول مقياس الطرف، وهو الجفن الأعلى للعين مقياساً للإحضار.

وورد فيما جاء رداً على توجيه النص إلى سليمان عليه السلام محضراً للعرش: قلتم: لو كان شخصاً آخر غير سليمان لكان له تفوق عليه في معرفة الكتاب، وغفلتم عن أن من عظمة سليمان وسعة ملكه أن يعلم واحد من رعيته هذا العلم، وهو في خدمته، فمن عنده علم من الكتاب بحيث يأتي بالعرش قبل طرفة عين، هو خادم في مملكة سليمان، وطائع له، ثم إن المزايا لا تقتضي الأفضلية، وليس نقصاً في منزلة الملك ألّا يعرف كل شيء عرفته رعيته، ولنا في الخضر مع موسى عليه السلام مثال، حيث إن ما اختص به الخضر لا يعليه على موسى، وهو رسول، ومن أولي العزم من الرسل.

إن السياق ونمط التعبير والإبهام فيه لا يوظف بسهولة لمصلحة سليمان عليه السلام بناء على قضية التفوق المنفي، وسنشبع هذا المعنى إيضاحاً فيما يأتي.

بقي قبل أن نصل إلى مبتغانا؛ وهي الحصيلة التي نبني عليها ما نراه، أن نحدد مسألتين مهمتين تندرجان في المضمون العام للمشهد؛ أولاهما: مسألة اسم الله الأعظم، أهي قضية لها ثبوت؟ وما دليلها إذا كانت ثابتة؟ والثانية: مسألة المعجزة والكرامة، وما مرجعهما المشترك؟ وبم تفترقان؟ ولكون المعجزة والكرامة والاسم الأعظم من مكونات (المشهد)، على ما ذهب إليه الكثير من المفسرين، لزم أن نعرض لهذه المكونات، نتبين أبعادها ومدى ثبوتها، وبخاصة أن لله اسماً أعظم إذا دعي به سبحانه وتعالى أجاب.

ثم نفضي إلى المحطة التي نريد حيث نحط رحال هذه الرحلة الشائقة بين ثنايا الأحداث، وعبر صفحات التفاسير، ونستشرف صفحة الأفق الوضاء لتاريخ شهدته هذه الدنيا بملء سمعها وبصرها، وسجل ملخصاً آيات بينات تتلى في المحاريب، وتنضح على السامع والتالي من الأذواق، وتكشف من الآفاق، فلا تمكن اختناقات الحياة من أن تفعل فعلها في النفوس المؤمنة.

فإلى رحاب أسماء الله سبحانه وتعالى، ومنها الاسم الأعظم.

مما ورد في اسم الله الأعظم والأدعية المستجابة أن رسول الله ﷺ بعث يوماً سرية، وأمر عليها عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وعلى الطريق غدر المشركون بالسرية، وأحاطوا بها، وطلبوا منهم تسليم أنفسهم بقولهم: "لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألّا نقتل منكم رجلاً" فأبى عاصم ومعه مجموعة التسليم، وقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في جوار مشرك، اللهم فأخبر عنا رسولك، وقتل عاصم في أثناء القتال، وكان قد قتل في غزوة بدر رجلاً من المشركين اسمه مسافع بن طلحة، ولما علمت أم مسافع (سلافة) بأن قاتل ولدها عاصم نذرت إن أمكنها الله من رأسه لتشربن فيه الخمر، وكان عاصم، قبل أن يدخل في القتال مع من أحاط بسريته من المشركين، عاهد الله ألّا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك، وقال: اللهم إني حميت دينك أول النهار فاحم جسدي آخره، وقد أرسلت قريش إلى القتلة أن يأتوهم بعاصم مقتولاً أو بشيء من جسده، فأرادوا حزَّ رأسه ليرسلوه إلى سلافة، لكن الدبر - ذكور النحل ويقال لها: زنابير- حمت جسده، وثارت في وجوه

القوم تمنعهم، ولما لم يقدروا على شيء منه، وأعجزتهم الدبر الحائمة حول جثمان عاصم، قالوا: إن الدبر إذا جاء الليل انصرفت، فبعث الله مطراً فجاء سيل فحمل جثمان عاصم وذهب به، فلم يوجد، فسمي عاصم (حمي الدبر)(١).

وروى أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "رُبَّ ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك" ودلالة قوله: "منهم" واضحة على أن هناك من له هذه المنزلة عند الله سبحانه وتعالى، ولما كان يوم (تستر) وفيه معركة مع الفرس، انكشف الناس، فقالوا له: يا براء! أقسم على ربك، فقال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك ﷺ. فدارت الدائرة للمسلمين على الكفار، واستشهد البراء ﵁ (٢).

وردت نصوص تدل على أن أناساً ليسوا بأنبياء، لهم منزلة "من لو أقسم على الله لأبره " منها: في الجامع الصغير(٣) قال رسول الله ﷺ: "رب أشعث

---

(١) انظر: أسد الغابة: ترجمة عاصم.

(٢) انظر ترجمته في: معرفة الصحابة لأبي نعيم: ١/ ٣٨١.

(٣) رقم (٤٤٠١).

أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبرَّه".

وفي الحديث الآتي ما يرشح بسر إخفاء صاحب هذه المنزلة بالإضمار "عليكم بالتواضع، فإن التواضع في القلب، ولا يؤذين مسلم مسلماً، فلربما متضاعف في أطمار لو أقسم على الله لأبره"(١)، وقد ورد أن عمار بن ياسر منهم.

وورد في حق أويس بن عامر حيث حدد الرسول للصحابة أبرز صفاته، ومنها "لو أقسم على الله لأبره". وقد قال رسول الله لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "....فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل...". وقد التقاه عمر فعلاً، حيث كان يسأل عنه في أمداد اليمن، كما أخبر الصادق المصدوق، وسأله أن يستغفر له، ففعل. وهنا نبين فنقول: أين مقام أويس من مقام عمر مع هذا؟! وهذا يدل على أن ما أعطي أويس من خصوصية لا يعني نقصاً فيمن هو أعلى منه رتبة، ولم يؤت ما أوتي. ويأخذ بيدنا إلى رحاب ما أوتي (آصف) من خصوصية، وأنه لا يعني أنه أرفع من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مكانة.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رُبَّ

(١) برقم (٥٥١٧) في الجامع، ورواه الطبراني عن أبي أمامة وهو برقم (٧٧٩٥).

أشعث أغبر مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"[١].

وفي (الديباج) للسيوطي عند الحديث[٢] قال: لأبره: أي لو أقسم على طلب شيء أن يقع أو يرفع لأوقعه الله سبحانه وتعالى أو رفعه استجابة له، وتفضلاً منه سبحانه وتعالى... وإن كان هذا المقسم على الله سبحانه وتعالى لا يأبه له الناس.. ورفعاً لوهم قد يسري في صدر ما، ودفعاً له، أقول: لا تحسبن أنَّ ثمة تعارضاً بين هذا القطع في الإجابة وبين ما جرى به القدر أزلاً! إذ الذي يلهم العبد المقسم بما يقسم به هو الله سبحانه وتعالى، ولذا تكون الإجابة موافقة لما جرت به الأقدار، ولا تعارضها بحال، وقيل: معنى القسم هنا الدعاء، وإبراره إجابته. ولعله لم يذكر اسم الداعي في النص موضوع السؤال صريحاً، وذكر بوصفه الخارجي إذ لا مصلحة في التصريح، ولئلا يحصر في واحد؛ إذ تعيينه ربما يوهم أن غيره لا يعطى الاسم الأعظم ما أعطي.

وفي الفتح الكبير - في ضم الزيادة إلى الجامع

---

(١) انظر كتاب: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم: برقم (٢٧٤٨).

(٢) برقم (٢٦٢٢).

الصغير لجلال الدين السيوطي[١] - "إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، وكان به بياض، فمروه - الخطاب هنا للصحابة - فليستغفر لكم" روي عن عمر ﵁.

وعن أنس ﵁ عن النبي ﷺ: "كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك... والبراء كان في الغزو، وقد أوجع العدو من المسلمين فقالوا: يا براء! إن رسول الله قال: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، فأقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، قال: فمنحونا أكتافهم، والتقوا على قنطرة كذا وكذا، وقد سماها من روى الخبر فنسيتها، قال: فأوجعوا في المسلمين، فقال القوم: أقسم على ربك، قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك، فمنحونا أكتافهم، واستشهد البراء بن مالك"[٢]. ولأنس في الصحيح، قال

---

(١) برقم (٣٩٠٤).

(٢) انظر كتاب: علامات النبوة: ٧/ ٢٦١، وكتاب: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: لأحمد البوصيري: برقم (٦٨١٤)، وفي الترمذي: برقم (٣٨٥٤) قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح حسن من هذا الوجه.

رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه"[١].

وعمرو بن الجموح رضي الله عنه كان أعرج، لما دعا أقبل على القبلة، وقال: اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردني إلى أهلي خائباً. فقتل يومئذ في أحد. فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبرَّه، منهم عمرو بن الجموح.. ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته"... وهنا توكيد لدخوله الجنة، دون أن يكون المقصود أنه دخلها بعرجته؛ إذ لا عرج في الجنة.

وما مرَّ يدل على منزلة "من أقسم على الله" من الله؛ إذ أقسم عليه فأجابه، وهذا، وإن كان يدل على جانب الكرامة إلا أنه له وجه ثان يطل بنا على الدعاء واستجابته، وإن جاءت الصيغة "أقسم على الله" مما يدل على أن الحالف له دالة على الله، ومنزلة عنده، تبعث به هذا التوجه في القسم.

هذا، وقد أنكر قوم أن يكون هناك الاسم الأعظم؛

---

(١) انظر: إتحاف الخيرة المهرة: برقم (٢/ ٧٢٨٧)، وعلامات النبوة: ٧/ ٤٤٣، والإكمال في ذكر من له رواية في مسند الإمام أحمد: برقم (٦٤١).

إذ كل أسمائه سبحانه وتعالى عظمى، وبنوا إنكارهم على أنه لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، من حيث نسبتها الواحدة إلى الله سبحانه وتعالى المسمى بها، ووجد بعضهم ملمساً لدى الإمام مالك حيث كره أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور؛ لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض، وهذا مع التعليل السابق حيث القرآن كله كلام الله، وقدروا أن كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه (أعظم) ليرجع إلى معنى (عظيم). وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي، كما أطلق ذلك في القرآن على مراد مزيد ثواب القارئ.

وعلل بعضهم ورود الاسم الأعظم على أنه (كل اسم) من أسمائه تعالى دعا العبد به مستغرقاً في التوجه، حتى لا يبقى في ذات الداعي أي التفات لغير الله سبحانه وتعالى، وقالوا: إن من تأتى له ذلك استجيب له، وقد نقل هذا المعنى عن جعفر الصادق ﵁ وعن الجنيد رحمه الله تعالى.

وقال آخرون: استأثر الله بعلم الاسم الأعظم، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "ما أصاب مسلماً قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني

عبدك وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه، وأبدله مكان حزنه فرحاً. قالوا: يا رسول الله! ألا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن" رواه عبد الله بن مسعود، وقال في (المستدرك): هذا حديث صحيح على شرط مسلم، إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه عن أبيه(١).

وذهب فريق إلى التعيين، وإن اختلفوا فيه؛ فقد ذهب بعضهم إلى أنه (الله) لأنه اسم لم يطلق على غيره سبحانه وتعالى، ولا يطلق؛ ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى، وبعضهم ذهب إلى أنه (الرحمن الرحيم الحي القيوم) فلفظ الجلالة (الله) علم على الذات الأقدس المستحق لجميع المحامد وليس هو الاسم الأعظم..

ومن حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ١/ ٥٣٠.

قال: "اسم الله الأعظم في معاني الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٣] و﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥][١].

وبعضهم ذهب إلى أنه (الحي القيوم) ومن حديث أبي أسامة رضي الله عنه: "الاسم الأعظم في ثلاث سور: البقرة وآل عمران وطه" قال من روى عن أبي أسامة -وهو القاسم-: التمسته فعرفت أنه (الحي القيوم). وقواه الفخر الرازي، واحتج بأنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما.. روى الحديث ابن ماجه.

وبعضهم قال: (ذو الجلال والإكرام) وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام! فقال: قد استجيب لك فسل"[٢]. واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهية؛ لأن في الجلال إشارة إلى جميع السلوب، وفي الإكرام إشارة إلى جميع الإضافات..

وذهب آخرون إلى أنه "الله لا إله إلا هو، الأحد

(١) أخرجه الترمذي وحسنه أصحاب السنن إلا النسائي.

(٢) أخرجه الترمذي.

الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد "[١]. على أن بعض التعيينات ترجع إلى مجرد الرأي دون السماع.

وقبل أن أكمل ما أود تناوله بهذا الشأن أبدي عجبي من محاضرة بعنوان (منهج السلف في الأسماء)، وقف فيها المحاضر، مع كثرة النصوص الدالة على (اسم الله الأعظم)، موقف المعرض عن كل ما ورد، ليقرر ما يأتي بعدما طرح سؤالاً: ما اسم الله الأعظم؟

وجاء الجواب يقول: كثير من الناس - وخصوصاً الصوفية- يزعمون "أن الاسم الأعظم سر مكتوم، وأن خاصة أوليائهم هم الذين يعلمونه، ويعلمونه بالتلقي من مشايخهم، وأن هذا الاسم من علمه، ودعا الله به فلا بد أن يستجاب له، بغض النظر عن كفره أو إيمانه، وجعلوا لذلك هالة في قلوب العامة يعظمون من خلالها هؤلاء الأولياء خوفاً ورهباً من دعائهم بالاسم الأعظم الذي انفردوا بمعرفته، قال: ولو سئلوا لماذا حجب الاسم الأعظم عن عوام

(١) أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث (بريدة)، وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك كما قال العلماء..

الناس؟ يقولون: حتى لا يدعون به دعوة باطلة، فنحن أمناء على سر الله، ويستدلون بحديث شبه موضوع يروونه عن أنس ﷺ قال رسول الله ﷺ: (سألت الله الاسم الأعظم، فجاءني جبريل به مخزوناً مختوماً. اللهم إني أسألك باسمك المخزون المطهر المقدس المبارك الحي القيوم. قالت عائشة: بأبي وأمي يا رسول علمنيه! قال: يا عائشة نهينا عن تعليم النساء والصبيان والسفهاء..)"!!!

ولا تعليق على ما ساق المحاضر سوى القول: إن عباراته تنضح بالبغض والكراهية وشن الهجوم، ولا تجد فيها من التحقيق والتدقيق والبحث العلمي الموضوعي سوى قوله: "شبه موضوع". علماً أني لم أفهم ما يقصد "بالشبه" هنا؟! إذ المعروف في علم الحديث أن يقال: ضعيف - واهٍ - واهٍ جداً - شديد الوهي- موضوع، أما شبه (المحاضر) هنا فغير معلوم لي، ولا يخفى قول المحاضر: (يزعمون) ففيه نسبة الاصطناع للحديث والوضع له، وكذا كشفه عن نيات من "زعم أنه عرف اسم الله الأعظم" ثم كيف يروي الحديث الذي ساقه، وما فيه من ذكر اسم الله الأعظم، وتقف السيدة عائشة عليه ثم تسأل الرسول أن يعلمها إياه، فيجيب: نهينا عن تعليم...

ولنرجع لنتابع ما ورد عن السلف الصالح من أخبار تتناول الاسم الأعظم:

ففي (أسباب النزول) للنيسابوري عند قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٥] قال ابن مسعود: نزلت في بلعم (أو بلعام) بن باعورا، رجل من بني إسرائيل، وقاله ابن عباس وغيره، وقال الوالي: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له (بلعم) وكان يعلم اسم الله الأعظم، وقد أغراه بنو عمه أن يدعو على موسى عليه السلام خوفاً من أن يظهر عليهم، فأبى في البداية ثم دعا. فسلخه مما كان عليه..

وفي الحديث أن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "في هاتين الآيتين ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ٣/ ١-٢]: إن فيهما اسم الله الأعظم"[١].

---

(١) رواه الترمذي، قال: حسن صحيح. ورواه أبو داوود أيضاً. وروى النسائي أن الرسول ﷺ قال لفاطمة: "ما منعك أن تسمعي ما أوصيك به، تقولين إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين".

وفي (البحر المديد) عن أبي هريرة ﷺ: سألت حبيبي رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: "عليك بآخر الحشر، فأكثر قراءته" فأعدت عليه فأعاد علي، فأعدت عليه فأعاد علي. ورواه في الكشاف.

وفي (الكشف والبيان) للنيسابوري في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام: قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعبيد بن عمير: هو اسم الله الأعظم، وبه كان يحيي الموتى ويبرئ الناس.. وتلك العجائب..

وفي المنهل القدسي في فضل آية الكرسي عن النبي ﷺ قال: "إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور: سورة البقرة وآل عمران وطه"(١)، قال القاسم - وهو الذي روى عن أبي أمامة -: فالتمستها فوجدت في سورة البقرة آية الكرسي، وفي آل عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ٣/١-٢] وفي طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه: ٢٠/١١١] رواه أحمد في مسنده، وجاء في مشكل الآثار ما قاله القاسم أبو عبد الرحمن حيث التمس الاسم في سورة البقرة وآل عمران وسورة طه... وقد علق الشارح في عون الودود على هذا فقال: فائدة في قول القاسم: إن

(١) رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن أبي أمامة ﷺ.

الاسم الأعظم في سورة (طه) في الآية ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ [طه: ٢٠/ ١١١] لم أجد في المرفوع ما يؤيده. فالأقرب عندي أنه في أول السورة ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ٢٠/ ١٤] فإنه الموافق لبعض الأحاديث الصحيحة (١)، وفي (الفتح الرباني) باب (ما جاء في فضل آية الكرسي)... وقال الشيخ أحمد البنا: ويستفاد من هذا الحديث أن اسم الله الأعظم هو ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ٣/ ١-٢](٢)، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: "اللهم لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنان بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام! فقال الرسول: لقد سألت باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى" والحديث صحيح كما قال العلماء.

روى علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: "اسم الله الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب دعوة يونس بن متى عليه السلام ألم تسمع

---

(١) انظر في: الفتح: ١١/ ٢٢٥، وصحيح أبي داوود: (١٣٤١) كتاب الجنة والنار.

(٢) الفتح: ١٨/ ٩٢، والحاكم في المستدرك: ١/ ٥٠٦.

قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧-٨٨] فهو شرط الله لمن دعا بها"، وعن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧] لم يدع بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب"(١).

وقال بعضهم ما قال قتادة: اسم الله الأعظم: اللهم إني أعوذ بأسمائك الحسنى كلها، ما علمت منها وما لم أعلم، وأعوذ بأسمائك التي إذا دعيت بها أجبت، وإذا سئلت بها أعطيت، قال ابن حجر: وأرجحها من حيث السند "الله لا إله إلا هو الأحد الصمد...". وقال الرازي في (لوامع البينات): منهم من قال: الاسم الأعظم (الحي القيوم) ويدل عليه وجهان؛ أحدهما أن أبي بن كعب رضي الله عنه طلب من النبي - عليه الصلاة والسلام- أن يعلمه الاسم الأعظم، فقال: هو في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] وفي: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ

(١) رواه أحمد والترمذي.

ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١-٢]، قالوا: وليس ذلك في قولنا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن هذه موجودة في آيات كثيرة، فلما خص الاسم الأعظم بهاتين، علمنا أنه ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. وفي (إتحاف الخيرة المهرة): عن سليمان بن بريدة عن أبيه: "كنت مع رسول الله ﷺ فأتى على رجل يقرأ قد رفع صوته، فقال: يا بريدة! قلت: لبيك وسعديك، قال: أتراه مرائياً؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاثاً، فقال رسول الله: بل هو مؤمن منيب، ثم أتى على رجل يدعو يقول: اللهم إني أسألك أني أشهد أنك لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال رسول الله: لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به استجاب"(١). وبناء على ما سبق نجد أن نفي اسم الله الأعظم باطل لورود أحاديث كثيرة فيه، وفي ابن ماجه باب (اسم الله الأعظم) كتاب الدعاء، وفي الترمذي كتاب الدعوات، باب (جامع الدعوات عن النبي ﷺ)، وفي النسائي كذلك.. أفيسوغ مع بعض هذا أن ينفي أحد الاسم الأعظم، ويعرض عما جاء فيه دون مسوغ؟!

---

(١) رواه أصحاب السنن الأربعة، وابن حبان في صحيحه قصة الدعاء دون قصة القراءة.

وفي (فيض القدير)[1] وهو يتناول اسم الله الأعظم، قيل: بمعنى العظيم، وليس أعظم أفعل للتفضيل؛ لأن كل اسم من أسمائه سبحانه وتعالى عظيم، وليس بعضها أعظم من بعض، وقيل: هو للتفضيل؛ لأن كل اسم أكثر تعظيماً لله فهو أعظم، فاسمه (الله) أعظم من اسمه (الرب) وكلاهما له سبحانه وتعالى اسم، فإن (الله) اسم لا شريك له في تسميته به، لا بالإضافة، ولا دونها، وأما (الرب) فيضاف إلى المخلوق تارة، يريد أنه يقال: رب الدار، ورب الأسرة... وعليه، فإن أسماء الله الحسنى كلها حسنى، وكلها عظيمة، وقد وصف الله سبحانه وتعالى أسماءه بالحسنى في أربعة مواضع في القرآن.. وكانت حسنى لدلالتها على أحسن وأعظم وأقدس مسمى، وهو الله عز وجل، فهي بالغة في الحسن من جهة الكمال والجمال..

ومن قال ذلك؛ أي جميع الأسماء حسنى، ذهب إلى اعتبار ما يناسبها من أحوال العباد؛ فاسم الله الأعظم في حال الفقر الغني، وفي حال الضعف القوي، وفي حالة الجهل العالم، وفي حالة السعي

---

(١) فيض القدير: (١٠٣١).

والكسب الرزاق، وفي حال الذنب التواب الغفور الرحيم... وهكذا كل اسم هو الأعظم في موضوعه على حسب حال العبد.

قال العلماء في قوله: "الذي إذا دعي به أجاب" يعطي عين المسؤول بخلاف الدعاء بغيره، فإنه - وإن كان لا يرد- لكونه بين إحدى ثلاث: إعطاء المسؤول في الدنيا أو تأخيره للآخرة، أو التعويض عنه بأحسن..

قال الطيبي: الفرق بين إذا سئل به أعطى و"إذا دعي به أجاب" أن الثاني أبلغ؛ فإن إجابة الدعاء تدل على شرف الداعي، ووجاهته عند المجيب، فتتضمن أيضاً قضاء حاجته بخلاف السؤال فقد يكون مذموماً، وذلك ذم السائل في كثير من الأحاديث، ومدح المتعفف، أقول: وذم السائل الذي يتوجه بسؤاله إلى الخلق دون حاجة.

ونعود إلى الطبري لنقرأ ما كتبه بهذا الشأن، ونجد فيه صلة هذا السرد بموضوع السؤال الرئيس. قال: (فإن قيل: فلو كان كما وصفت (كل اسم من أسماء الله عظيماً) لا شيء فيها أعظم من شيء، لكان كل من دعا باسم من أسمائه مجاباً دعاؤه، كما استجيب دعاء صاحب سليمان الذي أتاه بعرش بلقيس من مسيرة

شهر قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه؛ لأنه كان عنده علم من اسم الله الأعظم، وكذلك عيسى عليه السلام به كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، وقد يدعو أحدنا الدهرَ الطويلَ بأسمائه فلا يستجاب له، فدل على أن الأمر بخلاف ذلك.

ورد بأن الأمر في ذلك كما قلناه، والاختلاف في أحوال الداعين؛ فمن داع لا ترد دعوته، ومن داع كله محل غضب، وعرضة للبلاء والفتنة، فلا يرد كثيراً من دعائه ليبتليه به، ويبتلي به غيره، ومن داع يؤخر دعاءه محتومُ قضائه، ومبرمُ قدره! وقد قال عليه الصلاة والسلام: "ما من مسلم يدعو إلا استجيب له، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، إما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يؤخر له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا...". ويبين ما قلناه أنا وجدنا أنه يدعو بالذي دعا به الذين عجلت لهم الإجابة فلا يجاب له، فدل أن الذي اقتضى الإجابة لمن أجيب، وترك الاستجابة لمن لم يستجب له، اختلاف حال الداعية، لا الدعاء باسم من أسماء الله بعينه).

ووقفة قصيرة بين يدي مسألة تفضيل أسماء الله تعالى بعضها على بعض، وتفضيل بعض سور القرآن

وآياته على سائر السور والآيات، لنقرر بها مجموعة من الحقائق:

القرآن كله بسوره وآياته كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على قلب الرسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، وهو بهذه المرتبة في القمة من التعظيم والإجلال؛ حيث أضيف إلى الله تعالى إضافة الصفة إلى الموصوف.

جاءت نصوص تتناول بعض السور والآيات تناولاً يشعر بمالها من خصوصية، لا من حيث كونها آيات، بل من باب المضمون الذي حملته، وبالنظر إلى المضامين تجد قضية التفضيل واضحة. وقد ورد في سورة البقرة، وسورة الإخلاص، وسورة يس، وسورة الملك، وسورة الواقعة، وبعض الآيات كآية الكرسي ما يدل على خصوصيات تتعلق بالمضامين، ولتجلية هذا المعنى أقول:

في مشكاة المصابيح "كتاب فضائل القرآن عموماً وبعض سوره وآياته خصوصاً" : والفضل خلاف النقص، واختلف هل في القرآن شيء أفضل من شيء، فذهب أبو الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر الباقلاني إلى أنه لا فضل لبعضه على بعض؛ لأن

الأفضل يشعر بنقص المفضول، وكلام الله حقيقة واحدة لا نقص فيه، وقال قوم -وهم الجمهور- بالتفضيل لظواهر الأحاديث، كحديث ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن، وحديث إن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١/١١٢] تعدل ثلث القرآن، قال القرطبي: إنه الحق، وقال ابن الحصار: العجب ممن يذكر الاختلاف في ذلك مع النصوص الواردة في التفضيل، وقال الغزالي في (جواهر القرآن): لعلك أن تقول قد أشرت إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض، والكلام كلام الله! فكيف يكون بعضها أفضل من بعض؟

فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المداينة، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت، وترتاع على اعتقاد الفرق نفسك الخوارة المستغرقة بالتقليد، فقلد صاحب الرسالة، فهو الذي أُنزل عليه القرآن، وقال: "يس قلب القرآن"، وفاتحة الكتاب أفضل سور القرآن، وآية الكرسي سيدة آي القرآن، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١/١١٢] تعدل ثلث القرآن، وغير ذلك مما لا يحصى.

ثم اختلفوا فقال قوم: الفضل راجع إلى عِظَم

الأجر، ومضاعفة الثواب، بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها عند ورود أوصاف الله العلي، وقال آخرون: بل يرجع ذات اللفظ، وإن ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٣]، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص، من الدلالة على وحدانيته وصفاته ليس موجوداً مثلاً في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١١١/١]، أو ما كان مثلها، فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، قال القسطلاني: ولعل الخلاف في هذه المسألة - أي مسألة التفضيل - يلتفت إلى الخلاف المشهور: إن كلام الله شيء واحد أم لا؟ وعند الأشعري: أنه لا يتنوع في ذاته، بل بحسب متعلقاته، وليس لكلام الله الذي هو صفة ذاته بعضٌ، لكن بالتأويل والتعبير وفهم السامعين اشتمل على أنواع المخاطبات، ولولا تنزله في هذه المواقع لما وصلنا إلى فهم شيء فيه.. انتهى، وقيل: التحقيق أنه لا خلاف في المعنى، بل الأول محمول على ذات القرآن وحقيقته، والثاني: على غيرهما كما علم[1]، وقد تناول ابن تيمية في كتاب له

---

(١) ارجع للبسط إلى: الإتقان للسيوطي ٢/١٥٦-٥٧.

سماه (جواب أهل العلم والإيمان...) هذه المسألة وبيَّن فيه حكمة الله في تفاضل بعض السور والآيات مع أنها كلام الله سبحانه وتعالى.

والآن نتجه إلى الأمر الخارق للعادة في صورتيه (المعجزة والكرامة) لنتبين منه ما يجلي لنا ما نريد، ولما له صلة بموضوع السؤال، فأقول:

إن الخوارق - سواء منها ما ظهر على يد رسول أو على يد ولي - خلق الله سبحانه وتعالى، ولا علاقة لمن ظهرت على يديه بها إلا من حيث ظهورها على يديه، ولعل المعجزة بهذه المنزلة تدل على تأييد الله بها لمن أرسله، وتقوم مقام قول الله سبحانه وتعالى: (صدق عبدي فيما يبلغ عني) وليس للكرامة هذه الدلالة، إنما دلالتها على منزلة هذا الولي الذي أكرمه الله بهذه الخارقة.

جاء في كتاب (التعريفات) للجرجاني[١]: "المعجزة أمر خارق للعادة داع إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله".

وقال الكرامة: هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل

(١) برقم (٢٨٢).

شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة[١].

والكرامة تدل على مجموعة من المصالح والحكم فيها، وتدل، كما تدل المعجزة، على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ونفوذ مشيئته؛ إذ هي فعل الله حقيقة، ظهر على يد من ظهر على يديه. وهي خرق للسنن الكونية التي أقامها الله في هذا الكون، وأقام الكون عليها.

ومما قرره العلماء أنه لا يلزم على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون، بل هم لا يظهرون إذا طلب المنكرون ذلك عناداً وامتحاناً، أو استهزاء، ولذا قال العلماء: (المعجزة مبنية على الإظهار بخلاف الكرامة)؛ فالأصل في الكرامة الاستتار، وما أبعد إذا قلت بناء على هذا المعنى: إن كتم اسم من أتى بعرش بلقيس يدخل في كون الكرامة مبنية على الستر! ونافلة لا تضر بل تنفع. أقول: إن معجزاته عليه الصلاة والسلام كثيرة كما هو ثابت، ومنها المعجزة الباقية كتاب الله تعالى، وهذه، وإن

---

(١) السابق: ص ٢٣٥.

كانت معجزة، لكنها لا تدخل في التعريف الذي هو فعل الله؛ لأن القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى، وكلامه سبحانه وتعالى من صفاته، ومن هنا تميزت معجزة القرآن بالبقاء، بخلاف المعجزة التي هي من أفعال الله، فإنها تبقى بإبقاء الله لها، ومما ثبت له ﷺ من المعجزات نبع الماء من بين أصابعه في مواطن كثيرة متعددة، وتكثير الطعام، وحنين الجذع، ولكن كما تراها خوارق ظهرت في وقتها، وأدت دورها، وطويت، لتصبح أخباراً تدعو إلى الإيمان بها، حدث وقع فيما مضى وانقضى.

ولعل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٧] يشير إلى معجزة رمي الرسول يوم بدر الكفار بحفنة من تراب، فدخلت عيون الجميع، ويدل على صلة المعجزة بالأصل حيث قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٧] فأسند صورة الرمي إلى الرسول بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ والله أتى بما هو غايته، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً.

قال الشاعر يرصد هذه المعجزة:

ورماهم خير الورى بسهام
راشها ربه هي الحصباء

فـأصـابـت بـكـفـه الجـيـش طُـرّاً

إذ مـن الله لـيـس مـنـه الـرمـاء

كذلك من البداهة أن المعجزة لو كانت على مجرى العادة لا تكون معجزة؛ فعصا موسى ﷺ حين صارت ثعباناً، وابتلعت جميع ما ألقى السحرة من حبال وعِصيّ، بلا زيادة حجم، ثم صيرورتها كما كانت، على خلاف مجرى العادة، ومن هنا رأى العلماء أنه لا يجب استمرار المعجزة في الأزمنة؛ إذ لو استمرت وشاعت، وكانت كل عصا بهذه الصفة، لخرجت عن دائرة الإعجاز، والتحقت بالمعتاد المأنوس، فخلق الله سبحانه وتعالى الفواكه متدلية ناضجة حلوة لذيذة رائقة لوناً وريحاً وطعماً، من الأمور الباهرة المذهلة، ومع ذلك لا تدخل في نطاق المعجزات؛ لجري سنة الله بهذا في المواسم.

وما ذكر من إنجاء إبراهيم ﷺ من النار التي أضرمها قومه ليحرقوه بها انتصاراً لأصنامهم، وإبراء المسيح ﷺ الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، معجزات ثابتة.

كذلك من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من

خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات.

ومن المأثور عن سالف الأمم في هذا الميدان في سورة الكهف قصة أصحاب الكهف، والكرامة كانت ولا تزال في الأمة، وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على وقوعها، ومما قاله العلماء:

وأثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

وهي - كما مرَّ - أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد ولي من أوليائه معونة له على أمر ديني أو دنيوي، والخارقة - كما مرَّ - إن كانت مقرونة بدعوى الرسالة تسمى معجزة، ومن أنواع الكرامات: علم وكشف وقدرة وتأثير:

ومن الأول ما جرى لعمر رضي الله عنه في قصة سارية، لما نادى، وهو على المنبر فقال: يا سارية؛ الجبل الجبل.

ومن الثاني ما وقع للسيدة مريم عليها السلام، ولأصحاب الكهف[١].

ولا تشترط الولاية الخاصة لإجراء الكرامة؛ إذ

(١) وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١١/ ٣١٤-٣١٨.

تكفي الولاية العامة؛ أي: الدخول في عداد المؤمنين، فيشمله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧] وعليه لا يلزم لظهورها كمال الاستقامة.

وكل كرامة لولي من الأولياء هي في الحقيقة في صحيفة النبي الذي آمن به ذلك الولي، واتبع خطاه، ولولا ذلك لما كانت تظهر على يديه، بل لم يكن ولياً أصلاً. وهذا أظهر في أولياء هذه الأمة الذين حققوا الولاية بإيمانهم بالنبي الخاتم. وإن خفي عنا هذا المعنى في بعض من سبق؛ كأصحاب الكهف، فإنه لا يفسد هذا المعنى، ومما خفي عنا أنا لا ندري من اتبع أصحاب الكهف من الرسالات على سبيل القطع، وإن كانت هناك أقوال، وهذا لا يتعارض مع قولنا: لم تحصل الكرامة إلا ببركة الاتباع والسير على الهدى، والكرامة بشرى معجلة لمن ظهرت على يديه؛ إذ هي دالة على ولايتهم وحسن عاقبتهم، وإن كانت لا تقتضي العصمة، ولا توجب حسن الخاتمة، وإن رشحت لها، ثم إننا نعتقد أن الكرامة لن تنقطع، ولا تنقطع إلى يوم القيامة، والواقع دليل ما نقول لمن تابع هذه الظاهرة، أو وقف على ما يقع منها لقربه من هؤلاء الذين يَحْبوهم الله بذلك.

على أنا ما علينا إذا عطرنا هذه الصفحة بنقل بعض ما أورده الإمام النووي رحمه الله في كتابه النفيس[١] تحت عنوان (باب كرامات الأولياء وفضلهم).

فقد ساق بداية قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦٢]، ومرَّ على ذكر ما أُمِرَت به أم المسيح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٢٥]، وعرج على قصة أصحاب الكهف، وأورد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر"[٢].. ومحدَّثون: ملهمون، والتحديث نوع كرامة دل حديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن عمر مُنِحها.

وعن أنس رضي الله عنه "أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما كانا عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة ظلماء حندس، فخرجا من عند النبي فأضاءت عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها حتى إذا افترق بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه

(١) رياض الصالحين: في ٤٧٦.
(٢) رواه البخاري، ورواه مسلم من رواية عائشة.

حتى بلغ أهله"[١]، هذا، وقد ظهرت كرامات فيمن سبقنا من القرون، سقنا بعضها، ومنها: واقعة أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج، ولما قصها على النبي ﷺ بين له أنها السكينة تنزلت للقراءة".

وورد أن الملائكة كانت تسلم على عمران بن حصن، وذكر أن سلمان وأبا الدرداء كانا يأكلان في صحفة، فسبحت أو سبح ما فيها.

وخبيب بن عدي أسرته قريش، فكان يؤتى بعنب - وهو أسير - يأكل، وليس بمكة عنب، والعلاء الحضرمي مشى هو وجيشه فوق البحر على خيولهم، متوجهاً إلى البحرين ليفتحها، ولم يكن معهم قوارب ليعبروا بها.

وأسر الأسود العنسي الذي ادعى النبوة باليمن أبا مسلم الخولاني، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟! قال: ما أسمع!! قال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر الأسود بنار فألقي فيها أبو مسلم، فصارت عليه برداً وسلاماً.

---

(١) في معرفة الصحابة لأبي نعيم: برقم ٤٨٥١.

قال الطحاوي: ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم، وعليه فالإيمان بالمعجزات والكرامات أصل دلت عليه نصوص الكتاب والسنة والواقع الشاهد، فعلى المكلف أن يعتقد ذلك، والتكذيب بشيء ثابت منها رد للنصوص ومصادمة للواقع... والمعجزة - لغة - تعم كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة، ويفرق في الإطلاق؛ إذ الخارقة على يد النبي معجزة، وعلى يد الولي كرامة، ويجمعهما الأمر الخارق للعادة.

وقال أبو علي الجوزجاني: كن طالباً للاستقامة، لا طالباً للكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة، فالكرامة من مطالب النفس، والاستقامة من مطالب الشرع، ومن هنا نظهر الطاعة في جماعة، ونخفي طلباً للإخلاص ما يكون بيننا وبين الله من توجه. ألا يشير ذلك كله إلى كون الإتيان بعرش بلقيس من الكرامات التي ستر من وقعت على يديه اسماً، وحدد وصفاً؟!

وفي تعريف للكرامة: أنها أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة لها، تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح، مصحوب بصحيح الاعتقاد

والعمل الصالح، وبكونها غير مقرونة بالتحدي خرجت المعجزات لاقترانها به، وكونها ليست مقدمة لها خرج الإرهاص، وهو مقدمة للنبوة، وكونها تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح يخرج ما يقع على يد السحرة والكهان، ولو ظهر الخارق على يد فاجر فليس بكرامة قطعاً، إنما هو استدراج(١). قالوا: والولي من توالت طاعاته من غير تخلل معصية، أو: هو الذي يتولى الحق تعالى حفظه وحراسته على التوالي من كل أنواع المعاصي، ويديم توفيقه على الطاعات، والولي مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧] هذا، وحيث نلح على قضية الكرامة إثباتاً وأبعاداً نريد بذلك أن نؤكد أن إسناد الإتيان بعرش بلقيس ليس غريباً عن تصور المسلم، ولهذا نسوق ما يلي:

ثمة فروق بين المعجزة والكرامة:

المعجزة: مقرونة بدعوى النبوة بخلاف الكرامة، وتحصل الكرامة باتباع الولي النبي والاستقامة على شرعه.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: فخر الدين التميمي الرازي الشافعي، ٧٢/٢١.

ومن الأئمة من ذهب إلى أن كرامات الأولياء في الحقيقة تدخل في معجزات الأنبياء؛ لأنها تحصل باتباع الرسل، فكل كرامة لولي هي من معجزات رسوله.

ويذكر هنا أن حصول الكرامة لأحدهم لا يعني رفعة من حصلت له على من لم تحصل له، بل المطلوب الاستقامة، وبها تكون المفاضلة، وهي التي طلبها الله منا، والكرامة هي مطلب النفس من الله، وشتان ما بين أنت طالب منه، وما هو طالبه منك كما مرَّ قريباً!

بل ربما ظهرت الكرامة على يد من لم يكتمل أمر صلاحه ورسوخه فيه، وقد جاء في الحديث صفة (جريج) الذي اتهم بالفاحشة اتهاماً كِيْدَ له به، وما ظهرت براءته حتى استنطق الطفل الرضيع، وسأله: من أبوك؟ فقال الصبي: أبي راعي الضأن... ولما سمع قومه ذلك برؤوه. وكانوا قد هدموا صومعته لما بلغهم الاتهام، فلم يلبثوا حين سمعوا قول الرضيع ببراءته أن عرضوا عليه أن يبنوا ما هدموا على أحسن ما يكون، فأبى إلا أن تعاد على مثل ما كانت..

وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ما يعلم بقصة جريج الناسك حين اتهم بالزنى من حاسديه،

وجيء به إلى ساحة القضاء، بعدما كسروا صومعته وشتموه، وجيء بالمولود الذي اتهم بأنه منه، فنخسه جريج.. قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ حين قال بيده: يا غلام! من أبوك؟ فقال: الراعي... فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا إليه.

ومنها قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وسد عليهم بابه، فما كان منهم إلا أن دعوا الله ففرج عنهم...

وسنلخص ما أوردناه مع بيان ما اتضح لنا بشأن من هو الذي عنده علم الكتاب، مع بعض الحيثيات التي أغفلناها أو بعضها في السياق.

بناء على ما تقدم أجدني أمام ما يلي:

نحن أمام نص قرآني تضمن مشهداً قولياً وفعلياً، وقد جاء القول مسنداً إلى ذات موصوفة بصفة العلم، تمخض عنه فعل، تجلى بإحضار عرش الملكة بلقيس من اليمن! وقد وقف العلماء أمام هذا القائل ليتعرفوه: أهو رجل أوتي علماً إلهياً، ودرى اسماً من أسماء الله سبحانه وتعالى، وكان له مع الله حال، جاء هذا الإنجاز على يديه، وهو ممن ضمهم مجلس نبي الله سليمان عليه السلام؟ أم هو سليمان نفسه كما ذهب بعضهم،

لكنه لم يذكر صراحة تنسجم مع سياق الآيات التي تناولت كثيراً من منن الله سبحانه وتعالى عليه؟ وإن كان سليمان، فكيف نوجه الخطاب في النص، وبم نعلل هذا التوجه؟

بصائر تجلي قضية السنن الكونية وما يقع من خوارق:

لولا الاطراد في السنن لما كان من معنى للخارق.

العلاقة بين الأسباب والمسببات ثابتة عادية، وليست ضرورية.

الخالقية لله تعالى في كل ما يطرح في ساح الوجود.

لا حول ولا قوة إلا بالله حقيقة؛ فكل مظاهر القوة والحول في المظاهر الكونية به قائمة، والنص ما نفى أن يكون هناك حول أو قوة، لكنه حصر المصدر وحدده بقوله: "إلا بالله"، هذا، وقد علمتنا الشريعة جزئيات من هذا المنهل التوحيدي الرائق نلهج به، مع شهود معناه في القلوب، وملاحظة الأسباب في عالم الأسباب، وندعو في غمرة الشكر الآسر:

اللهم أطعم من أطعمنا، وهذا من عالم الأسباب، وقولنا: الحمد لله الذي أطعمنا، يوقفنا على الحقيقة، وحركة الحياة في عالم النبات ترجع إلى البصائر من

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٢٤-٢٧] حركة دائبة وإمداد مستمر دون إلغاء للظاهر بل إثبات له على أنه منه سبحانه وتعالى لا من نفسه، والديمومة ثابتة من خلال السنة الكونية في عالم النبات الذي هو من العوالم الرئيسة فوق الأرض التي هي من إنعامه..

عموم القدرة لكل المخلوقات ظاهرها وباطنها، فلا يخرج مخلوق عنها، والقول بالخصائص في غفلة عن الإمداد قول بالقوة المودعة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٧] حاسم في هذه القضية التوحيدية المثيرة! وفرق بين رؤية الخصيصة القائمة في النار أو الماء على أنها مستقلة في التأثير، وبين رؤيتها قائمة بإقامته وإمداده...

والأسباب مظهر الحكمة، وعليها أديرت الحياة، وإلغاؤها تعطيل للحكمة، كما أن إثبات التأثير لها دون الله باعتقاد خصائص فيها تعمل لون شرك، يسمى (شرك الأسباب)، ولو رئي فيها أنها خلقه ابتداء، وهو لون إقامة شريك مع الله يخلق ويؤثر ويغني ويفقر ويشفي ويروي ويشبع و... الصواب إثبات الأسباب بإثباته، وأنها ممحوة بأحدية ذاته؛ أي: لا تأثير

لها بنفسها، وإنما تأثيرها بما يخلقه الله عندها!!

وإثبات الفعل لله لا يلغي ما ظهر به الفعل، بل يثبته مجرداً عن التأثير بنفسه.

البحوث تؤكد أن ما يظهر من علاقة بين الأسباب والمسببات، لا ينفي وجود عنصر أو عناصر أخرى خفيت عنا من وراء ما ينتج عن هذه العلاقة...

نستحضر هنا ثبوت الكرامة، وورود الأحاديث والأخبار باسم الله الأعظم، وثبوت الولاية، وأن ما يظهر على يديها لا يضر بمقام النبوة، بل هو شعاع من شمس النبوة، كما نستحضر السياق دون تدخل عبر جسر الاحتمالات، وبما ينضح به مباشرة، وأن الأمر لم يكشف في النص تعييناً، وأن الاكتفاء بإسناد الفعل إلى رجل من حاشية سليمان عليه السلام لا يخدش مقام النبوة، فإن عبد الرحمن بن زيد لم ير مساً بمقام النبوة حين قال: لم يعلم سليمان ذلك الاسم، وقد أعطي ما أعطي، وما ورد في قصة الهدهد حيث أحاط بما لم يحط به من أمر سبأ، يرشح لهذا المعنى..

-وبداية نقول: إذا كان النص يحتمل الوجهين، بناء على ما نقله العلماء، فأي الوجهين أرجح؟ ذلك أنه لا يصح أن يتساوى الوجهان معاً تساوياً لا ميزة

لأحدهما فيه. وهنا علينا أن نسرد الحقائق الآتية لنصل إلى أيهما أرجح مع التعليل، وقد مر معنا ثبوت كل من المعجزة والكرامة واسم الله الأعظم، وكلها من مكونات الوجهين، وما ذهب إليه العلماء، وهم يحددون مَن الذي عنده علم من الكتاب يشي بذلك، ومن هنا كان السؤال المطروح حول طلب سليمان عليه السلام أن يؤتى بعرش بلقيس هو: ما الفائدة التي تترتب على هذا الطلب؟وقد تعددت التعليلات، ولعل أقواها: أنه أراد أن يجعله دليلاً على نبوته؛ لكون العرش يؤخذ من ثقاتها دون جيش ولا حرب، ويرجع إليها ملكها بعد قيام الدليل عليها، وبهذا يكون الإتيان بالعرش معجزة ظهرت على يد الرسول تصديقاً له في دعوى الرسالة، ولا يعول هنا على الكرامة في الدلالة.. قال القرطبي: إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهو كرامة، وكرامة الولي معجزة النبي؛ لأن للكرامة ما للمعجزة من الدلالة على صواب المنهج، وصدق دعوى من أتى به والتزمه، وهنا لا ننسى أن بلقيس قد قررت الالتحاق بسليمان بعدما وقفت باختبارها على حقيقة أمره، وعليه، فيكون إظهار معجزة منه ليؤكد هذا المعنى في نفسها، ويكون أدعى إلى مطلق التسليم..

وفي (التحرير والتنوير) قوله: ﴿ءَاتِيكَ﴾ الضمير في الفعل "آتي" وهو الفاعل، لو كان لسليمان لكان المعنى أن سليمان سيأتي بالعرش للعفريت المخاطب إذ يقول له: أنا آتيك به! ولو كان لما ساغ مثل هذا من سليمان؛ إذ يكون العفريت هو الطالب للعرش! ولو كان لجاء التعبير" أنا آتي به" دون " آتيك "... وقال المفسرون الذين رجحوا أن آصف هو الذي عنده علم من الكتاب: قول سليمان لما رأى العرش: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠] إما لأن الله أقدره على ذلك بنفسه، أو لأنه سخر له " من عنده علم من الكتاب " فأتاه به.

- قال القشيري بصدد ترجيح كون الحدث كرامة: وقد أنكر كرامات الأولياء مَن قال إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه. وقالوا في توجيه الخطاب: إن سليمان خاطب العفريت، فقال له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠] فكأنه تحداه في أمر الزمن الذي اقترحه العفريت لينجز مهمة إحضار العرش... وعند هؤلاء ما يفعله العفريت ليس من المعجزات، ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرون على مثل هذا؛ أي: فعلهم لا يُعدُّ خرقاً للعادة...

- لم يصرح النص القرآني باسم من أسند إليه

الإتيان بالعرش، وإنما اكتفى بوصفه وما لديه من علم من الكتاب، وهو علم خاص، ولو نص على اسمه لانتفت كل هذه الأقوال، وما جاء فيها من اجتهادات، كذلك لو ثبت حديث عن الرسول ﷺ يحدده لانتفى الخلاف كذلك. وستأتي فقرات تبين سر هذا الإبهام.

- التقت الكثير من الأقوال على أن معرفة من أسند إليه هذا الحدث باسم الله الأعظم من وراء ما قام به، ومن أسند الأمر إلى سليمان عليه السلام أغفل الاسم الأعظم؛ إذ اكتفى بكونه رسولاً، وهذا الحدث مما أيد به من خوارق، وليس كل الخوارق من نتاج هذا الاسم.

- ليس هناك ما يمنع عقدياً أن لا يكون الذي تولى أمر الإتيان بالعرش نبياً؛ إذ الخوارق كما ثبتت للأنبياء معجزات ثبتت للأولياء كرامات، ولا تغض كرامات الأولياء من معجزات الرسل عليهم السلام.

- الخارقة والعلم باسم الله الأعظم ليسا خاصين بالرسل، ومن علم اسم الله الأعظم من الأولياء لا يقتضي أنه أعلى رتبة من رسوله الذي وجب الإيمان به ومتابعة من وراء ولايته.

- لا يخفى أنه لا يخلو إخفاء اسم من جاء بالعرش، وإظهار ما به كان أهلاً ليأتي به، من حكمة باهرة تشع في صدر المتلقي للآية خيوطها، وتهمس أن في الناس مخبوئين قد دججوا بطاقات يستمنحونها من ذي الجلال خارقة، يستمدونها ممن بيده ملكوت السموات والأرض، الذي والوه فيدعونه باسمه الأعظم الذي علمهم إياه، وقد ذكرنا طرفاً من الأدلة باهرة على هذه الحقيقة، كما يطل علينا جراء ذلك من المعاني أن ثمة أناساً لهم مقامات عند الله، ربما لا يدل ظاهرهم عليها بادي النظر إليها، وقد أتحفتنا النبوة بمثل هذه البصيرة، وهذا يربي فينا الاحترام والتوقير بعامة إلا من أسقطته الشريعة.

- ما يؤكد مسألة تفضيل بعض القرآن على بعض من حيث المضامين، لا من حيث الألفاظ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه [١] قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن، هي آية الكرسي"[٢]. وواضح أن

(١) وهذا في: سنن الترمذي: ٥/ ٨٨، برقم (٢٨٧٨) وقال: حسن غريب، وورواه الحاكم عن أبي هريرة في: لمستدرك، وتحفة الأحوذي، وجمع الجوامع.

(٢) قال في المستدرك بعدما ذكر "سيدة آي القرآن آية الكرسي": هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

آية الكرسي تتجلى سيادتها بمضمونها الذي يحدثنا عن الله جل جلاله!

وعن أبي بن كعب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: أبا المنذر! أي آية معك من كتاب الله أعظم؟ قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر!!، والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش"(١). وما أروع الطريقة التربوية للسيد الرسول **عليه الصلاة والسلام** التي اعتمدت على إثارة ذهن أُبيّ ليبحث عن الحقائق حيث سأله: "أي آية معك.." وليكون حامل القرآن متدبراً لما يحمل، كذلك جواب أُبيّ يجلي ثمرة من ثمرات هذه التربية؛ إذ حدد ما سئل عنه تحديداً صوبته النبوة، وجاء أمر التهنئة بعلم غال تتويجاً لهذا المنهج الرباني الذي خرج علماء أناروا الحياة والنفوس كما أنارت الأرض الشموس!! فما أحوجنا إلى هذه الإنارة حيث أظلمت الآفاق من حولنا إلا من بصيص!!

---

(١) رواه أبو بكر بن شيبة، ورواه أحمد ومسلم في صحيحه، وأبو داوود دون قوله: "إن لهذه الآية.." .

- ضبطت العادة بعادة أهل زمان الخارق، وتحديد الكرامة بهذا يخرج ما جرى على أيدي الأنبياء عليهم السلام؛ إذ هو خارق لكنه يطلق عليه أنه معجزة كما أسلفنا، وعرش بلقيس يمكن اليوم أن يؤتى به محمولاً، وبوقت دون الوقت الذي حدده العفريت للإتيان به، ويتصل بهذا قضية إنكار كفار قريش للإسراء بناء على الزمن الذي حدث فيه، لا على أنه حدث يدخل في الاستحالة، وقد جاء في تعليل إنكارهم: إنا نضرب أكباد الإبل شهراً ذهاباً وشهراً إياباً، وأنت قمت بذلك في بعض الليل!! واليوم يمكن الانتقال عبر وسائط النقل ببعض الليل إلى مكان مماثل، ولكن ألا ترى أن من أنكر الحدث من قريش بنى إنكاره على قياس فاسد؛ إذ أغفل أن فاعل الإسراء حقيقة هو الله سبحانه وتعالى، ولذا أسند الفعل (أسرى) إليه، وما كان ينقلهم إلى بيت المقدس إبلهم!!!... كذلك تكرر الخارق حتى يصير عاماً يخرجه عن كونه خارقاً ويدخله في السنن الجارية.

- من رجح أن يكون القائل هو سليمان عليه السلام قال:

لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق، وقوله بعدها: ﴿هَٰذَا مِن

فَضۡلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠] يقتضي ظاهره أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله على يديه وبدعائه،.. ويذكر هنا أن الخارق إذا ظهر على يد الولي لا يضر ظهوره بمنصب النبوة بل لا يخدشه أي خدش، وقول سليمان لما رأى العرش يشير إلى أنه لما رآه حاضراً بين يديه لم يحضر قلبه مع الواسطة، إنما استغرقه شهود فضل الله عليه!! وهذا الحال قد يذوقه من هو دونه في المرتبة، وقد يعيشه من ليس بنبي، لكنه تربية نبي!!

وقال في (الظلال):... ونحن نرجح أنه غير سليمان، فلو كان هو لأظهره السياق باسمه، ولما أخفاه، والقصة كلها عنه، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر!!..هذا، وقد سيق ذكر اسمه صراحة عند ذكر تسخير الرياح، وتعلم منطق الطير، وسماع كلام النملة تحذر، إضافة إلى ما كان من أمر الهدهد.. ثم لما جاء ذكر مسألة العرش أخفي اسم من تسبب بالإتيان به! فلم - وهو في معرض تعداد نعم الله عليه - لم يقل: قال سليمان: أنا آتي به؟؟!!

الموقف ملخصاً يتضمن ما عرض سليمان على مَلَئِه أن يبدي منهم من يقدر على نقل العرش من اليمن إلى

فلسطين، وحدد لتنفيذ ذلك الزمن الذي يسبق وصول الملكة ومن معها إليه، ولا يكاد يظهر معنى هذا العرض إن كان يراد منه مجرد التحدي للملأ؛ إذ لا معنى أن يعرض أمراً وهو يريد أن ينجزه بنفسه، فهذا لا يعدو نوعاً من إظهار قوته مقابل ما يعرضه الآخرون! أو ليظهر قدرته على جلب العرش قدرة تفوق قدرة الآخرين!! وبهذا يصبح العرض من أجل إثبات قدرته التي تفرد بها دون أن يكون هناك مغزى آخر، مع أن المطلوب الإتيان بالعرش دون منافسة الملأ فيه... ولقائل أن يقول: أراد أن يجس قدرات الملأ، ويتعرفها، ثم بعدها يتصرف بما يراه مناسباً، وهذا القول يدل على أن بالإمكان أن يكون من الملأ من له قدرة تفوق قدرة سليمان عليه السلام، ولو كان ذلك لدلَّ على أن وجود الأقوى في جهة ما لا يعني إجحافاً بحق النبوة؛ ذلك أن من ليس بنبي لا يرقى بما أوتي إلى مرتبة النبوة التي هي اصطفاء، ولعل الخضر لا يعلو على موسى الكليم عليه السلام بل لا يدانيه مع ما اختص به من علم؛ إذ موسى عليه السلام رسول، ومن أولي العزم، والخضر ولي أو نبي على ما ذهب إليه بعضهم..

- لم تحالف الإصابة من ذهب مشرقاً ومغرباً يتلمس من يسند له أمر الإتيان بالعرش، لقرب تناول

النص بصورته أمر من عنده علم من الكتاب، وإن بقي أمره تعييناً أمراً خفياً، والكرامات فيما قرره العلماء أمرها مبني على الستر...

- لا يلغى قول من قال: إنه سليمان؛ لاحتمال النص له، وإن كان بعيداً، ويحتاج إلى توجيه.

- الاختلاف في النسبة إلى المحل لا إلى المظهر للفعل؛ إذ هو الله سبحانه وتعالى بالاتفاق.

- عرض النص حالة الإنجاز التي دل عليها قول: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠] فأسند أمر الإتيان بالعرش إسناداً ظاهراً إلى الاسم الموصول الذي وضحت جملة الصلة معناه، لكنه جاء مضمر التعيين.

وأقرب ما يتجه إليه الذهن عند التلاوة أن الذي عنده علم من الكتاب هو غير سليمان ﵇ ليكمل المجلس بمن فيه: سليمان والعفريت والرجل الذي عنده علم من الكتاب، وطلب سليمان من الملأ ما طلب، وإجابة اثنين، وتولى أحدهما أمر التنجيز..

هذا وبالله التوفيق...

عبدالكريم تتان / دبي ١٩/ ١٢/ ٢٠١٠